طبعة مزيدة ومنقحة 2015

ينابيع الرجاء

الجزء الأول

٣٠ سُنة ربانية وبشارة إلهية



د. خالد أبو شادي



طيبة

للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	ينابيع الرجاء (الجزء الأول)
المؤلف	د. خالد أبو شادي
مقاس الكتاب	20.5 × 14.5
عدد الصفحات	232
عدد الألوان	2 لون
رقم الإيداع	2014 / 4110

موبايل: 0100 20047865 - 0100 1390293

٤٢ شارع رياض - حلوان - القاهرة

E-Mail: tibaadv@yahoo.com



ومضات

سألني:

هل هناك أمل؟!

فأجبته:

بل هناك يقين!

اليائس لا يقوى على البناء لأنه كيان مهدوم، وفاقد الشيء لا يعطيه!

الحزن حبل من حبال الشيطان يعقـده على عزم الإنسان ليُقعِده عن الانطلاق واللحـاق بمضمار السباق، والغاية الجنة!





ليست وعود بَشَر..

بل وعود الذي لا يخلف وعده..

ولا يخذل عبده..

فما الذي أودعها اليوم وادي النسيان!

وقد امتلأت بها آيات القرآن وأحاديث النبي العدنان.

أجهلاً بها؟!

أم تكاسلا عن القيام بشروطها؟!

أشكٌّ في الوعد أم شكٌّ في الواعد؟!

أم أن استطالة الطريق أقعدت؟!

وسطوة الأعداء أتعبت؟!

وقسوة الظالمين أرهبت؟!

وكثرة الأدعياء وزيغات العلماء أحبطت؟!



فإن لم يكن شيء من ذلك، فلم السكون!!

تقدَّم!!

اركض برجلك..

ارحل عن وادي اليأس بقلبك..

لا تعلِّق آمالك إلا بربِّك..

هذا مغتسل بارد وشراب..

هذا سكة الأنبياء..

وطريق فيه آثار خير الصِّحاب..

فاقبض على هذه السنن فإنها مفاتيح النجاة..

وتشرَّبها بقلبك فهي إكسير الحياة..

وإذا ألقى الشيطان في روعك شبهة من الشبهات..

أو رماك مكتوفًا في وادي الأحزان وأنت تسمع فلانٌ أصيب وغيره مات!

فاقرع أسماع شياطين الإنس والجن ببشارة الحق في قوة وثبات:

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾





إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾لعلّ

أما بعد..

ففي هذه المرحلة الحرجة التي تعيشها الأمة، وفي خضم التحولات الهائلة التي نتعرض لها، فإن كثيرًا من الشباب استولى عليهم اليأس، وتمكَّن منهم الحزن، وهم يرون سلاسل الشهداء، وأنهار الدماء، وتصاعد المكر والدهاء، وتعثر مسيرة التحرر من مكائد الأعداء، وقد سرت هذه الروح المُعدِيَة، فتملَّك التشاؤم بدلاً من التفاؤل، وفاضت الروح من عزائم الكثيرين، مما يستدعي تدخلاً سريعًا وحلاً ناجعًا!



ولاشك أن الوحي من قرآن وسنة هو شفاءٌ لما في الصدور، فهو الذي لو تنزل على جبل لتصدَّع من الخشية، ولولا مسّ القلوب للانت وبرِئت من القسوة، ولذا فقد جمعتُ لكم في ثنايا هذا الكتاب ثلاثين سُنة ربانية وبشارة إلهية، وهي كفيلةٌ بإحداث انقلاب في نفوس اليائسين منكم، وبثِّ الروح في أجساد المحبطين، وهي سننٌ وثيقة الصلة بالصراع الدائر بين الحق والباطل، وتأخذ بأيدي العاملين للعبور على جسر الابتلاء إلى روعة الجزاء، فأينا سيكمل المسير ليحقِّق وعد الله للأمة بالظَّفَر وتحرير الأقصى الأسير؟!

إن فارقًا ضخمًا بين من يبذل جهده اليوم متفائلاً، وبين من يبذله يائسًا قانطًا كَلَون من ألوان تأدية الواجب فحسب..

فارق في ما تصل إليه من نتائج..

فارق في سرعة بلوغ الأهداف..

وفارق أهم في ثواب الأعمال ودرجات العاملين عند رب العالمين..

حُكِي أن الإمام **أحمد** قيل له أيام المحنة:

يا **أبا عبد الله**.. أولا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟

قال: «كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق»[1].

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٨- شمس الدين الذهبي- ط دار الرسالة.



وصدق والله..

فهذا هو مقياس النجاح لدى أهل الآخرة! فليس الانتصار في معركة اليوم أن يهزم أهل الحق أهل الباطل، فهذا الأمر لله وحده، يصرِّفه كيف يشاء ومتى يشاء.

الانتصار في امتحان الآخرة ليس عن طريق أين وصلت، بل كم مِنْ جهدٍ بذلت، ومسافات قطعت منذ أن بدأت!!

وتبقى القضية الأهم بل والهمُّ الأجلُّ الذي يجب أن تسأل عنه نفسك:

- هل اخترتُ الطريق الصحيح؟
- هل التحقتُ بالعاملين المصلحين أم كنتُ في الغافلين والمبطلين؟!
- هل فترت همتي وانقطع نفَسي من طول المسير فقعدت واسترخيت؟!
- هل تكاسلت أو قصَّرت في واجبي وما هو مفروض عليَّ وإن لم أبلغ؟!

إن إجابة صادقة على هذه الأسئلة يحدد أين أنت في نظر الله، وتخبرك عن درجتك في مدارج الإيمان اليوم، ثم درجات الجنة غدًا، وإن الأحداث الجسام المحيطة بالأمة اليوم وعبر السنوات المقبلة تستدعي اليوم عزائم الأبطال، لأن التاريخ الآن يُكتب، وما نقدِّمه اليوم من سعي وبذل سيشكِّل وجه المنطقة ويغيِّر مسار الأمة خلال العقود المقبلة.

نعم..

هناك كثرة مخدوعة أو غافلة، وفي مقابلها قلةٌ باذلة مضحية..



نعم..

هناك جَلَدٌ متصاعد للفُجّار مع عجزٍ للثقات..

نعم..

مُطالبٌ أنت اليوم أن تسبح عكس التيار..

لكن..

متى كان الأمر يومًا غير هذا؟!

لقد ظلت سنة الصراع بين الحق والباطل مكرورة عبر التاريخ، وقواعد التدافع بينهما سارية، ومن هذه القواعد قلة السالكين وكثرة الهالكين، فهذا الإمام **أحمد** ينخسه أحد الجلادين بقائمة سيفه قائلاً: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟!

وجعل أحدهم يقول له: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟!»[1].

وهي كلمة أراد بها إضعاف عزيمته وتوهين قوته، فما استجاب له الإمام بل صمد!

وضرب لنا المثل في الزهد الحقيقي العميق لا السطحي الزائف، والزهد لمن ظنه في المظهر والتخشع ليس إلا ما قاله **أبو هشام المغازلي** حين سأله عنه **أحمد بن أبي الحواري** فقال:

«قطع الآمال، وإعطاء المجهود، وخلع الراحة»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥١.

(٢) قوت القلوب ١/ ٤٤٤- أبو طالب المكي – ط دار الكتب العلمية.



وهذا هو هدف الكتاب..

* قطع الآمال الدنيوية بالتعلق بنعيم الآخرة.
* وإعطاء المجهود وأقصى الطاقة للصلاح والإصلاح، والاهتداء والهداية.
* وخلع الراحة فلا نلقاها إلا عندما نحُطُّ رحال سفرنا في الجنة.

والله أسأل أن يبارك هذه الصفحات، ويطوي بها في ساحات البذل مسافات شاسعة وأزمانا طويلة، فيبلِّغنا نصرًا عزيزًا للإسلام، ويُقِرَّ عيوننا بولادة مجد تَليد وعزة مفتقدة ووحدة إسلامية جامعة.





إِنَّ اللّٰهَ لا يُصلح عَمَلَ المُفسدين



وهذا من كلام **موسى** عليه السلام لسحرة **فرعون** يوم المواجهة الكبرى، ومعناه: أن الله لا يصلح عمل من سعى في أرض الله بما يكره الله، وعمل فيها بمعاصيه، فلا يؤيِّده الله بجميل الخاتمة، وليس المرادُ بعدم إصلاحِ عملِهم عدم جعل فسادهم صلاحًا بل عدم إتمامه بل يمحق الله بركته، ويسلِّط عليه الدمارَ والبوار، والجملةُ تعليلٌ لما سبقها من قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾.

قال **المراغي** في مزيد إيضاح:

«أي إن الله لا يجعل عمل المفسدين صالحًا للبقاء، فيقوّيه بالتأييد الإلهى ويديمه، بل يزيله ويمحقه، ويثبِّت الحق الذي فيه صلاح الخلق، وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية، وهى مقتضى إرادته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومن ثم سيُنصَر موسى على فرعون، وينقِذُ قومه من عبوديته»[1].

ويقول **الطاهر بن عاشور** مبيِّنا طبيعة الباطل المضمحلة وزواله الحتمي:

«فإذا نفى الله إصلاحها فذلك بتركها وشأنها، ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل»[2].

ولهذا قال الله بعدها: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١) تفسير المراغي ١١/ ١٤٣.
(٢) التحرير والتنوير ١١/ ٢٥٦.



والإحقاق هو التثبيت، ومنه سُمِّي الحق حقًا لأنه الثابت، وإظهار اسم الجلالة في هذه الجملة ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ﴾ مع أنه مذكور في الجملة السابقة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ هو أمر مقصود، مع أن مقتضى الظاهر هو الإضمار وعدم التكرار، وذلك لإلقاء المهابة في نفوسهم، وقول الله تعالى ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾:

«فمعناه بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك»[١].

فالأمر الذي يريده الله سبحانه يتحقق بكلمة (كُنْ) فيكون الشيء، ولا توجد كلمة أقصر من (كُنْ) عند البشر؛ لكن الله لا يحتاج إلى الزمن الذي تُقال فيه كلمة (كُنْ)، وما يشاؤه الله سبحانه إنما يتحقق ويبرز إذا أراده الله وقدَّره.. ولا يعلم عاقبة الفساد مثل الرب سبحانه وهو الذي قال:

﴿ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴾ [القمر: ٣]

قال **البقاعي** رحمه الله: «أي ثابت وموجود، انتهاؤه إلى غاية تظهر فيها حقيقته من غير حيلة تصاحبه إلى رد ذلك القرار ولا خفاء على أحد، فلابد أن ينتهي الحق من كل شيء من الآجال والهدايات والضلالات والسعادات والشقاوات وغيرها إلى نهايته فيثبت ثبوتاً لا زوال له، وينتهي الباطل مما ادعاه الخلق فيه إلى غايته فيتلاشى تلاشيًا لا ثبات له بوجه من الوجوه، فإذا استقرت الأمور ظهر ما هم عليه وعلموا الخاسر من الفائز»[٢].

فسبحان العليم الحكيم الذي لا يفجؤه شيء، ولا تروعه حادثة ، فكل أمر عنده مستقر، مهما هاج وفزع لأجله أهل السماوات والأرض، فأولُّ كلِّ أمرٍ عنده كآخره،

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ١٣٦.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور١٩/ ٩٧ -البقاعي- دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.



فهو عالمٌ بحقيقته ومآله، والعالم بمآل الشيء لا يجزع منه.

وأما المصلحون الذين قصدوا بأعمالهم وجه الله تعالى، فإنَّ الله يبارك أعمالهم ويرقّيها، وينمّيها على الدوام، فالعبرة ليست بالحال بل بالنِّهاية والمآل، وثقة المؤمن في ضوء هذا القانون أن عمل المفسدين قد ينجح لبرهة وفي ظروف معيَّنة، لكن سرعان ما يصير وبالاً على أصحابه ولعنة عليهم!

ولهذا كان من حكمة الحُكّام وبصرهم الثاقب التزام هذا القانون، وأن يوصوا به عُمّالهم، يقصدون بذلك حماية ما شيَّدوا من الهدم، وصيانة ما غرسوا من أن الاقتلاع، فليس لهم بمواجهة الله من طاقة، والله قضى قضاء لا يُرَدُّ أن كل من أفسد فهو لسعيه بالمرصاد، ولذا كتب الخليفة الخامس **عُمر بن عبد العزيز** إلى عامله **عبد الرحمن بن نُعَيْم** ينصحه في سطر واحد:

«أما بعد، فاعمل عمل من يعلم أنَّ الله لا يُصْلِح عمل المُفْسدين»[1].

ولذا صلحت ولايته، وكانت نعم الإمارة، وساد البلاد العدل والإصلاح بعد أن اندحر عنها الفساد والمفسدون، وصلحت الرأس فصلح الجسد، وطابت السواقي لما طابت العين.



الله يعلمُهم!

قد يُفلِح قومٌ في لبس الحق بالباطل، وإظهار المفسدين في صورة المصلحين لبرهة من الزمن، لكن الله لا تخفى عليه خافية ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١١٤.



﴿ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]

سبحانه يعلم ما تُضمِر القلوب، وتميل إليه من الإفساد أو الإصلاح، ويحاسبكم على الدقيق والجليل حتى مثاقيل الذر! وإنما نبَّه القلوب إلى ذكر علمه تعالى، لتراقب الله عند كل عمل، وتترقَّب الجزاء الحتمي عن كلِّ ما تعمل.

قال ابن عثيمين رحمه الله: «العلم هنا علم معرفة؛ لأنه لم ينصب إلا مفعولاً واحدًا؛ وكأنه ضمَّن «العلم» معنى التميز؛ يعني يعلمه، فيميِّز بين هذا، وهذا؛ ويجازي كل إنسان بما يستحق؛ لأن التمييز بين هذا وهذا يقتضي أن يميِّز بينهما أيضًا في الثواب والجزاء؛ ويشمل ذلك الإفساد الديني والدنيوي؛ والإصلاح الديني والدنيوي؛ ويشمل الذي وقع منه الإفساد أو الصلاح»(١).

الغاية النبيلة لا تُدرَك إلا بطريق نبيلة!

وهذا الإفساد قد يتسلل إلى معسكر المصلحين! وذلك حين يلجؤون إلى سبُلٍ معوجة للوصول إلى غايات نبيلة.

إنك لو وصلت إلى أهدافك بالتنازل عن مبادئك وسلوك طريق الاعوجاج، فهذا وصول!

لكن إلى غضب الله وسخطه!

وما ظننته ظفرا بمرادك سيكون عين الضياع، وذلك لأن الله ينزع منك بركته،

(١) تفسير الفاتحة والبقرة ٣/ ٧٢ - محمد بن صالح بن محمد العثيمين- دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.



ويحرمك ثمرته.

واسمعوا كيف تمسك الصحابة بالمبادئ ولو أدى ذلك إلى التضحية والمخاطرة.

جعفر بن أبي طالب لما هاجر إلى الحبشة.. يسأله **عمرو بن العاص** عند النجاشي عن **عيسى بن مريم**، وذلك ليستخرج منه ما يوقع بينه وبين **النجاشي** الذي استضافه وآواه، فماذا فعل **جعفر**؟!

«لا مفرَّ من قول الحقيقة التي تحاشوا ذكرها من قبل، لم تعُد تُجدي العبقرية هنا لأننا أصحاب مبادئ لا تجار سياسة، لأننا أمام دعاة إلى الله، وليس مع دجالين نهازين للفرص حتى يصلوا إلى الحكم، وهنا تقف حدود السياسي على عتبة الداعية، وهذا ما قرَّره الدعاة المسلمون بعد كل هذه المكاسب التي حققوها.

كيف يتصرَّف السياسي المسلم أمام هذه الموازنات؟!

أمام هذه الخيارات الصعبة؟!

أن يجد كل ما يتمناه منهارا في لحظة واحدة، أو يجد الدولة التي يريدها على وشك أن تقوم، ثم يُطلب منه أن يضحي بهذا كله من أجل حقيقة عقيدية واحدة..

أبدًا.. إما السياسي وإما المسلم.. فلا خيرها عندها له إلا الإسلام..

انتهى دور العبقرية ولم يكن من بد إلا إعلان إعلان العقيدة..

ولو كانت تغيظ الكثيرين أو تقضي على كل ما حقيقة المسلمونمن مكاسب، قالوا وبلا خلاف: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»[1].

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية ص ٩٧، ٩٨- منير الغضبان- مكتبة المنار الزرقاء بالأردن.



وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِين



العاقبة من كل شَيْء آخِره، ومنه عَقِبُ الرَّجُل، ومنه العقوبة، لأنها تاليةٌ للذَّنب وعنه تكون، وقد وعد الله وعدًا جازمًا أنها للمتقين، وهي هنا:

النصر والظفر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

والدليل على أنَّ المراد هو العاقبة في الدنيا قبل الآخرة أن الله ذكر ذلك عقب قصة **نوح**، ونصَره بعد صبره على قومه، فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

أي أن عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت **لنوح** عليه السلام ومن آمن معه.

قال **الطاهر بن عاشور**:

«فإذا عُرِّفَتْ العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أوله، وذلك لأن كل أحد يود أن يكون آخر أحواله خيرا من أولها لكراهة مفارقة الملائم، أو للرغبة في زوال المنافر، فلذلك أطلقت العاقبة مُعرَّفة على انتهاء الحال بما يسر ويلائم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وفي حديث **أبي سفيان** قول **هرقل**: «وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة»، فلا تطلق المُعَرَّفَة على عاقبة السوء.

فالمراد بالعاقبة هنا عاقبة أمورهم في الحياة الدنيا ليناسب قوله ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وتشمل عاقبة الخير في الآخرة لأنها أهم ما يلاحظه المؤمنون.

وجيء في جملتي: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ



﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلفظين عامين، وهما: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، لتكون الجملتان تذييلاً للكلام، وليحرص السامعون على أن يكونوا من المتقين»[1].

وهي بشارة جميلة ووعدٌ لا يتخلف، و«قد عُلِم من قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان في الناس متقون وغيرهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارض، وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى»[2].

قد ينتصر الباطل في جولة، ولكن الجولة الأخيرة يقينًا لأهل الحق، والنصر لأهل الله، والبشارات في ذلك معروفة مأثورة سارت بها الركبان عبر ما بشَّرت به آيات القرآن وأحاديث سيد الأنام ﷺ.

وفي وصف تفصيلي للمتقين حتى لا يختلط علينا الأمر، ولا ننخدع بالاسم عن المسمى، قال **محمد رشيد رضا** رحمه الله:

«فالمتقون في هذا المقام -مقام استعمار الأرض والسيادة في الممالك- هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأمة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل، والصالحون

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٦٠.



في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي»[1].

قال الإمام **المراغي** رحمه الله:

«والعاقبة الحسنى لمن يتقون الله ويراعون سننه في أسباب إرث الأرض باتحاد الكلمة والاعتصام بالحق وإقامة العدل والصبر على الشدائد والاستعانة بالله لدى المكاره، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب ودلت عليه الشرائع.

والخلاصة- إن الأمر ليس كما قال **فرعون**، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله، ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض ونحن الموعودون بذلك، ولكن بشرط أن نُقيم شرعه ونسير على سننه في الخلق»[2].

لكنَّ هذا لا يراه إلا أصحاب البصائر الإيمانية الثاقبة كما قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها؛ نال خيرها، ونجا من شرّها، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحسّ، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السّلامة، وبالنَّصَب ما رجا منه الرّاحة»[3].

واعتبِر بحال **الخضر وموسى** عليهما السلام، فإذا خفيت الحكمة على **موسى** مع مخلوق، فكيف بحكمة الخالق؟! قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«وهذا أصلٌ إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر، وإن ثبت

---

(١) تفسير المنار ٢/ ٣٨٠.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٣٨.
(٣) صيد الخاطر ص ٢٥.



استراح عند نزول كلِّ آفة»[1].



شبهة وردُّها!

وهنا شبهة رائجة ردَّ عليها بكلام ثمين قيِّم عالم في منزلة **ابن القيم**، وقد أوردتُ كلامه على طوله لأهميته:

«نذكر هاهنا نكتة نافعة، وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيرًا من الكفار والفُجَّار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفُجّار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فإذا ذُكِّر بها وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط.

وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق؟

قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد:

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

أو قال: فعل بهم هذا ليعرِّضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات،

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٨٧.



وتوفية الأجر بغير حساب.

وهذه الأقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مبنية على مقدمتين..

إحداهما:

حسن ظن العبد بنفسه وبدينه، واعتقاده أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نهى عنه، واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك، وأنه تارك للمأمور، مرتكب للمحظور، وأنه نفسه أولى بالله ورسوله ودينه منه.

والمقدمة الثانية:

اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه، بل يعيش عمره مظلومًا مقهورًا مستضامًا، مع قيامه بما أمر به ظاهرًا وباطنًا، وانتهائه عما نهى عنه باطنًا وظاهرًا.

فلا إله إلا الله، كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل، ومتدين لا بصيرة له، ومنتسب إلى العلم لا معرفة له بحقائق الدين.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين، وللفجار الظالمين على الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوعد الله تعالى ووعيده.

فأما المقام الأول:

فإن العبد كثيرًا ما يترك واجبات لا يعلم بها، ولا بوجوبها، فيكون مقصِّرا



في العلم، وكثيرًا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها، إما كسلاً وتهاونًا، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك، فواجبات القلوب أشد وجوبا من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هى من باب الفضائل والمستحبات.

قال تعالى:

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان..

وكذلك النصر والتأييد الكامل. إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]

وقال:

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هى بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذى يورده كثير من الناس على قوله تعالى:

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].



ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الحجة.

والتحقيق:

أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان.

وأما المقام الثاني:

الذي وقع فيه الغلط، فكثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق يكونون في الدنيا أذلاء مقهورين مغلوبين دائمًا، بخلاف من فارقهم إلى سبيل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصا بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان أو يجعله معلقا بالمشيئة، وإن لم يصرِّح بها، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه، والله سبحانه قد بيَّن في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذا كثير في القرآن»[١].

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ١٧٧-١٨٣ بتصرف.



وتلك الأيام نُداولها بين الناس



هي سنة عظيمة رائعة من سنن الله تعالى اسمها سنة (المداولة)، وقد عرض لها **أبو سفيان** ﷺ قبل إسلامه، ففي حديث **عبد الله بن عباس** رضي الله عنه في صحيح **البخاري** حول ذهاب **أبي سفيان** إلى **هرقل**، قد سأله **هرقل** عن حالهم مع رسول الله ﷺ فقال:

«الحربُ بيننا وبينه سِجَالٌ، ينالُ منَّا وننال منه».

فهي إذن سنة ربانية لا تتخلف، وحركة تاريخية لا تتوقف، فاليوم ترح وغدا فرح، اليوم عَبرة وغدًا حَبرة، وهي سنة جارية على الأفراد والجماعات والدول.

وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أُحُد، وذلك أن الله أمكن المشركين من المسلمين في أحُد، فقتلوا منهم سبعين صحابيًا، كما سبق وأن أمكن المسلمين من المشركين في بدر، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين.

قال الإمام **المراغي** رحمه الله:

«﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أن مداولة الأيام سنة من سنن الله في المجتمع البشرى، فمرةً تكون الدولة للمبطل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائما لمن اتبع الحق، وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة وإعداد ما يُستطاع من القوة، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتُحكِموها أتم الإحكام حتى تظفروا وتفوزوا، ولا يكن ما أصابكم من الفشل مُضعِفا لعزائمكم، فإنَّ الدنيا دول»[1].

وجاءت صيغة المضارعة ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ للدلالة على تجدد سنة مداولة الأيام من

---

(١) تفسير المراغي ٤/ ٧٩.



الأمم واستمرارها، وفي هذا قال القاضي **أبو السعود**:

«وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها»[1].

فيومٌ علينا ويـومٌ لنـا ... ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ[2]

ونلحظ أن مداولة الأيام إنما هي بين ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ فالأصل أن الناس سواسية إن تجردوا من منهج السماء، لكن صاحب الحيلة يغلب، وذو القوة يعلو، والأكثر عددا وعُدّة ينتصر، فما الذي يعوِّض المؤمن في مواجهة كل هذه الحيل والقوى والأعداد والعُدد؟!

ما الذي يضمن له الغلبة؟!

إنها موالاة ربِّه لـه، فلن يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهته إذا كان الله وليه ونصيره.



والقرآن يشهد!

من يملك القوة في أكثر الأحيان يغتر بها، ويظن أن حصونه تمنعه من قوة الله عز وجل، وقد قال الله في شأن اليهود:

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر:٢]

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٨٩.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١/ ٢٨١.



وهزيمتهم أمر لم يكن في حسبانهم، ولم يضعوه في الاعتبار، وما غفلوا عنه كان سِرَّ زوالهم ومفتاح انهزامهم.. وآية أخرى هي قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ [يونس:٢٤].

فهل دام الزخرف والزينة؟! كلا والله بل جرت عليه السنة الإلهية:

﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس:٢٤].



حكمة!

- **لكن ما الحكمة في المداولة بين المؤمنين والكافرين، والمصلحين والمفسدين؟!**
- **ولماذا لا تكون العاقبة دائمًا لأهل الحق من المؤمنين؟**

يجيب على هذا التساؤل في كلام بليغ وتفصيل بديع وحكمة بالغة **إسماعيل حقي**، وذلك في تفسيره فيقول:

«وليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين، وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصره تعالى منصبٌ شريف، فلا يليق بالكافر، بل المراد أنه تعالى تارة يشدِّد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، وأنه لو شدَّد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروري



والاضطراري بأن الإيمان حقٌّ وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا المعنى تارة يسلِّط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية، والمكلَّف يدفعها (هذه الشبهات) بواسطة النَّظَر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله، ولأن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون إما تشديد المحنة عليه في الدنيا أدبا له، وإما تشديد المحنة على الكافر، فإنه يكون غضبا من الله»[(١)].

تنبأ **أبو الجوزاء** رحمه الله بما سيجري في المستقبل وذلك من خلال تدبره لهذه السُّنة الربانية، وبلغ من يقينه أن أقسم في ثقة:

«والله ليُعِزَّنَّ الله ملك بني أمية كما أعزَّ ملك من كان قبلهم، ثم ليذلنَّ ملكهم كما أذلَّ ملك من كان قبلهم، ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]»[(٢)].



فلا تضِقْ ذرعًا يومًا من سوء الحال وغموض المآل، فدوامُ الحالِ من المُحالِ، والأيام دُوَلٌ، والدَّهرُ قُلّبٌ، والليالي حُبَالى، والغيبُ مستورٌ، والحكيمُ كلَّ يوم هو في شأنٍ.. نعم.. كلَّ يوم هو في شأنٍ.

(١) روح البيان ٢/ ١٠٠.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٥٣.



وفي تفسير هذه الآية وتعلقها بسنة المداولة قال **السعدي** رحمه الله:

«﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ يُغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويعطي قومًا، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته»[١].



خمس بخمس!

وانظروا في آيتين متتاليتين في كتاب الله تلمح فيهما هذه السنة واضحة جلية بين **فرعون** وبني إسرائيل:

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٨٣٠.



خلاصة الآيتين:



(١) إن فرعون علا في الأرض.

(٢) استضعف حزبًا من أحزاب مصر.

(٣) قتل الأبناء.

(٤) استحيا النساء.

(٥) إنه كان من المفسدين.

وقد قابل سبحانه هذه البلايا الخمسة بخمسة وعود ربانية مبهرة وعد الله بها بني إسرائيل:

(١) منَّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته.

(٢) جعلهم أئمة مقدَّمين على غيرهم في الدارين.

(٣) أورثَهُم ديار قوم آخرين على ما كانوا عليه من العظمة حتى كانوا يُعرفون بالجبابرة، وهي أرض الشام.

(٤) مكَّن لهم وثبَّت سلطانهم في ما ملكوه من أرضِ الشام ومصر.

(٥) أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هلاكهم وذهاب ملكهم على أيديهم.

هي قصة استضعاف وتمكين يتعاقب أحدهما مع الآخر كما يتعاقب الليل والنهار، وهي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وصدقت العرب حين قالت في المثل:

ما طار طيرٌ وارتَفَع... إلا كما طار وقَع.





والتاريخ القديم يشهد!

دخلت أم جعفر بن يحيى البرمكي على قوم في عيد أضحى تطلب جلد كبش تلبسه وقالت: هجم علي مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة قائمة، وأنا أزعم أن ابني جعفرًا عاق لي!

وكانت أخت أحمد بن طولون صاحب مصر كثيرة السرف في إنفاق المال حتى أنها زوَّجت بعض لعبها، فأنفقت على وليمة عُرسها مائة ألف دينار، فما مضى إلا قليل حتى رؤيت في سوق من أسواق بغداد وهي تسأل الناس[1].

وكذلك كانت الحروب الصليبية، فقد انتهت وتطهرت القدس من الغزاة بعد قرنين كاملين من الزمان، ولم يدم الحال للغاصبين، واستطاعت المقاومة أن تحقِّق أهدافها بطرد المعتدين في نهاية المطاف، وما كان الصليبيون يمثِّلون أكثر من ظاهرة عرضية موقوتة لا تقدر على مدِّ جذورها في الأرض، وكذلك اليوم حال دولة العدو الصهيوني، فهي جسمٌ غريب زُرِع في كيان غير متجانس مع ما حوله، ولهذا فإن الأرض ستلفظ هذا الكيان حتمًا لأن الأجسام الغريبة محكومٌ عليها بالطرد.

كانت الدائرة بالأمس للمسلمين على غيرهم، وهي اليوم لهم علينا، فالدور الآن

(١) لطائف المعارف ١/ ٢٩.



على هذه الأمة لتستلم مقود القيادة وتتصدى لصدارة الأمم، ونشرق بعد الغروب، ونعلو بعد الأفول.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾.

والتـاريخ الحديث يشهد!

خذ على سبيل المثال:

الشيوعية، كان لها دول تحميها ونظم عالمية عظيمة تتحدث باسمها وتفاخر بنشر مبادئها.. ودام لها الأمر عشرات السنين؛ ما يقارب السبعين سنة أو تزيد قليلاً، ثم ماذا؟!

ثم طالتها سنة المداولة، وبدأ العـدُّ التنازلي لانهيارها، فزالت من على وجه الأرض.

إن الإنسان يستطيل الأيام والشهور والأعوام، إلا أن الأمر أبعد من ذلك، فعشر أو عشرون أو ثلاثون سنة لا تساوي في حياة الأمم والشعوب شيئا؛ لكن الإنسان ابن لحظته، ولذا يرى الواقع القاتم أمامه سرمديًا لا يزول.

والمح هذا الإسقاط على أحداث التاريخ في قصيدة **أبي البقاء الرندي**، وقد رأى بعيني رأسه غروب شمس دولة الإسلام بالأندلس، فليست سنة المداولة جارية على غيرهم دون أن تنالهم:

لكل شيءٍ إذا مـا تـمَّ نقصـان ... فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتَها دُوَلٌ ... من سـرَّه زمنٌ ساءتـه أزمان

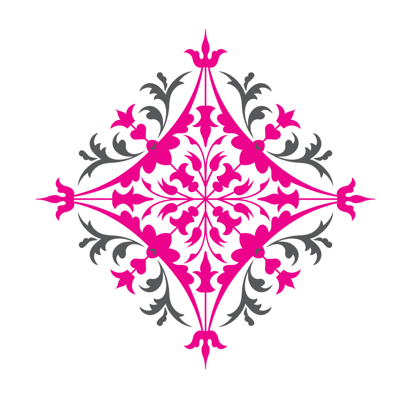


وصدق من قال وهو يخاطب من ظنَّ دوام الأحوال كثبات النعم واستمرار النِّقم:

لو أَنَّ مــا أنتمو فيـــه يدوم لكُم	**ظَننتُ ما أنـــا فيــه دائمًا أبـــدا**
لكنَّنـــي عـــالـــم أنِّـــي وأنكـــم	**سنستجدي خِلاف الحالتين غـدا**

وهو ما يدفع العبد إلى عدم العلو والطغيان، وترك الاغترار بما حازه من قوة وسلطان، بل ينغِّص صفو حاله علمه بدنو رحيله كما قال **ابن الرومي**:

إذا طاب لي عيــشٌ تَنَغَّصَ طيبُــهُ	**بِصِدق يقِيني أن سيذهب كالحلُمِ**
ومن كان في عَيْشٍ يُرَاعي زوالَـــهُ	**فذلك فـــي بُؤْسٍ وإن كان في نِعَمِ**





لأنصرنكَ ولو بعد حين



وهي وصية النبي ﷺ:

«اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام؛ يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»[١].

والمعنى: لا أُضيِّع حقَّك ولا أردُّ دعاءك، ولو طال الزمن لأني حليمٌ لا أُعاجِل بالعقوبة، لعلَّ الظلمة يَرْجعُون عن ظُلمهم فيردون المظالم إلى المظلومين، وفيه دلالة إلى أن الله يُمْهِلُ ولا يُهمِل.



ولصدق دعوة المظلوم إخلاص صاحبها تصعد في سرعة البرق إلى السماء، ولقوتها ورفعة مكانتها بين الأدعية لا تواجه في طريقها أي حُجَّاب أو حرس؛ ولذا حذَّر نبينا في وضوح:

«اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»[٢].

لذا صدق من أنذرك:

خَفْ دعوةَ المظلوم فهْي سريعةٌ طلعَتْ فجاءتْ بالعذابِ النازلِ

وليست إجابة دعوة المظلوم متعلِّقة بصلاحه أو فساده، وقربه من الله أو ابتعاده، والسبب واضح جليٌّ في قول نبيك:

«دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا، ففجوره على نفسه»[٣].

(١) صحيح: رواه الطبراني والضياء عن خزيمة بن ثابت كما في صحيح الجامع رقم: ١١٧.
(٢) صحيح: رواه الحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٨.
(٣) حسن: رواه الطيالسي عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٧٦٧.



بل ولا حتى ديانة الداعي تؤثِّر في إجابته! وفي هذا غاية التخويف من عاقبة الظلم مهما كان قدر من وقع عليه، ففي الحديث:

«اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا، فإنه ليس دونها حجاب»[1].

وتكرار لفظ **«اتقوا»** فيه إشارة إلى ضرورة الهرب من هذه الدعوة وكأنها شبحٌ يطارد الظالم ولعنة تُمسك بخناقه!

ولا تُتَّقى دعوة المظلوم إلا بالتوقف عن الظلم والتحلل من المظلوم.

حُكِي أن الأمير **نوح بن أسد** لما وضع الخراج على أهل سمرقند، بعث بريدًا إلى أميرها، فأحضر الأئمة والمشايخ وأعيان البلد، وقرأ عليهم الكتاب، فقال الفقيه **أبو منصور الماتريدي** للبريد: قد أدَّيتَ رسالة الأمير، فاردُد إليه الجواب، وقل له:

زِدْنا ظلمًا حتى نزيد في دعاء الليل!

ثم تفرقوا، فلم تذهب إلا أيام حتى وجدوه قتيلاً وفي بطنه زجُّ رمح مكتوب عليه:

بغَى والبغي سهامٌ تنتظر ... أنفذ في الأحشاء من وخز الإبرْ

سهام أيدي القانتاتِ في السَّحر ... يرمين عن قوسٍ لها الليل وَتَرْ

ولهذا لم يحرس الملوك أملاكهم بمثل إقامة العدل وصيانة الحقوق، وهو ما غفل عنه أكثر الولاة والأمراء اليوم فزال ملكهم واهتزت عروشهم، ولذا لما بنى **ابن مروان** سور آمد قال **لأبي يوسف القزويني** الفقيه الحنفي، وقد أراه إياه وعجَّبه من حصانته

(١) حسن: رواه أحمد والضياء عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ١١٩، والسلسلة الصحيحة رقم: ٧٦٧.



وإحكامه:

كيف تراه؟

فقال له العالم الرباني:

«يحفظك بالليل، ويردّ عنك السبل، ولا يحجب عنك دعوة المظلوم!»[١].

وذلك أنهم أجمعوا على أنَّ المظلوم موقوف على نصرة الله له مصداقًا لقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾.

ولذا قال **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه مستشعرًا قوة المظلوم لوقوف الله إلى جواره:

«إني لاستحي أن أظلم من لا أجد له ناصرا عليَّ إلا الله»[٢].

وبكى **علي بن الفضل** يومًا فقيل له: ما يبكيك؟ قال:

«أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حُجَّة»[٣].

ولذا جاء في المثل:

أقرب الأشياء صرعة الظلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم، ومن طال عدوانه زال سلطانه، ومن كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه.

(١) التذكرة الحمدونية ٧/ ٢١٠ - أبو المعالي بهاء الدين البغدادي- ط دار صادر، بيروت.
(٢) عيون الأخبار ١/ ١٤٤ - ابن قتيبة الدينوري- ط دار الكتب العلمية.
(٣) المستطرف ١/ ١١٦.





نعوذ بالله من دعوة مظلوم!

واسمع هذه القصة تنبيك عن نفاذ سهم المظلوم في قلب الظالم ولو تأخَّر:

قال صاحب كتاب (روضة الأزهار، وبهجة النفوس ونزهة الأبصار):

ولما مرَّ أمر **المنصور بن أبي عامر** بسجن **المصحفي** بالمُطبق (المُطبَق بضم الميم هو السجن لأنه أُطبقَ على من فيه) في الزهراء ودَّع أهله وداع الفُرقة، وقال لهم: لستم ترونني بعدها حيًا! فقد أتى وقت إجابة الدعوة، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة! وذلك أنّي أشركت (شاركت) في سجن رجل في عهد **الناصر**، وما أطلقتُه إلا برؤيا رأيتها بأن قيل لي: أطلق فلانًا فقد أجيبت فيك دعوته، فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته عليَّ، فقال: دعوت على من شارك في أمري أن يميته الله في أضيق السجون، فقلت: إنها قد أجيبت، فإني كنت ممن شارك في أمره، وندمت حين لا ينفع الندم، فيروي أنه كتب **للمنصور بن أبي عامر** بهذه الأبيات:

هبني أسأت فأين العفو والكرم ... إذ قادني نحوك الإذعان والنَّدم

يا خير من مدَّت الأيدي إليه أما ... ترثي لشيخ نعاه عندك القلم

بالغتَ في السُّخط فاصفح صفح مقتدر ... إنَّ الملوك إذا ما اسْتُرحِموا رَحِمو

فأجابه **المنصور** بأبيات **لعبد الملك الجزيري**:

يا جاهلاً بعدما زلَّت بك القدم ... تبغي التكرُّم لمّا فاتك الكرم

ندمت إذا لم تعد منّي بطائلةٍ ... وقلّما ينفع الإذعان والنَّدم



فبقي في المطبق حتى مات، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم»[١].

ولهذا صار شعار **شريح** القاضي يحمل في طياته وعد المظلوم ووعيد الظالم، فقد أقام **شريح** قاضيًا ما زاد عن سبعين سنة، وكان إذا جلس للقضاء يلهج بهؤلاء الكلمات التي هي سنن لا تتخلف، وقوانين ربانية لازمة:

«إن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النصر»[٢].

أصابع الضعفاء ومجانيق الضعفاء!

ولذا حذَّر الصالحون من أصابع الأيتام؛ يقصدون بها رفع إيديهم بالدُّعاء على الظَّالم، وحذَّروا كذلك من مجانيق الضُّعفاء أي دعواتهم، وقوة هذه الأسلحة في خفائها، حيث لا يراها إلا أصحاب البصائر والتجارب، فالظلم هو الذنب الذي لا يغفره الله لأنه تعلَّق بحقوق العباد إلا أن يعفوا ويغفروا.

ولهذا لما حجَّ **أبو مسلم الخراساني** قام بعرفات يدعو ويقول: اللهم إني تائب إليك مما لا أظنك تغفره لي، فقيل له: أيعظم على الله غفران ذنب؟ فقال:

«إني نسجت ثوب ظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبني العباس، فكم صارخة لعنتني

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ١/ ٦٠١.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٩.



عند تفاقم الظلم!

فكيف يغفر لمن هذا الخلق خصماؤه؟!»[1].

وهذا من عدل الله ورحمته، ففي قانون الله: هيهات أن ينجو ظالم بظلمه، ويفلت مجرمٌ من عقوبته.

واسمع **البارودي** يعرِّض بالحاكم المستبد ويتحدّى بطشه وغروره في عزة وشموخ:

يأيها الظالم في مُلكِه أغَرَّك المُلكُ الذي ينفدُ

اصنع بنا ما شئت من قسوةٍ فالله عدلٌ والتلاقي غَدُ



احذر قوة الضعيف!

في الحديث الصحيح:

«ابْغوني الضُّعفاء، فإنما تُرزَقون وتُنصَرون بِضُعفائكم»[2].

«ابغوني»: بكسر همزة الوصل أي اطلبوا لي **«الضعفاء»** يعني مساكين المسلمين لأستعين بهم، ويُقال بَغَيْتُك الشيء: طلبته لك، والمراد به طلب الإعانة، وطلب النبي ﷺ لهم ليكتبهم في ديوان المجاهدين وليستعين بهم، ولحضورهم فوائد

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣/ ٣١٥ - جار الله الزمخشري - ط دار مؤسسة الأعلمي ببيروت.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم وابن حبان والحاكم عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٤١.



أشار إليها بقوله: «**فإنما تُرزَقون**» أي تُرزَقون المطر والغنيمة في المعركة وغيرهما مما تنتفعون به، «**وتُنصَرون**» على أعدائكم «**بضعفائكم**» أي ببركة وجودهم بين أظهركم ورعايتكم لهم وبركة دعائهم، فإذا حنَّ الإنسان عليهم ورفق بهم وآتاهم مما آتاه الله؛ كان ذلك سببًا لحصول النصر على الأعداء، ومفتاحًا لسعة الرزق.

قال **القاضي**:

«والضعيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبرَّأ عن الحول والقوة بإخلاص واستعان بالله، فكانت له الغلبة بخلاف القوي، فإنه يظنُّ أنه إنما يغلب الرجال بقوته، فتُعجِبه نفسه غالبا، وذلك سبب للخذلان»[١].

ومن حكمته تعالى أنه أمر بإعداد العدة للعدو، لكنه أخبر مع ذلك أن النصر يكون بالضعفاء ليعلم الخلق أن ما أُمِروا به من الاستعداد وأخذ الحذر هو من قبيل الأخذ بالأسباب فحسب، لكن النصر في الحقيقة هو من عند الله قد يُلقيه على يد الأضعف، فمع قوة الاستعداد يكون ضعف الضعيف سبب قوة ثان له، لأنه اعتراف بأن الأمر كلَّه لله يدبِّره كيف يشاء.

قال **ابن بطال** في سبب إصابة دعوة الضعفاء عن غيرهم:

«تأويل الحديث أنَّ الضعفاء أشد إخلاصًا في الدعاء وأكثر خشوعًا في العبادة، لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا»[٢].

---

(١) فيض القدير ١/ ٨٢ بتصرف.

(٢) تطريز رياض الصالحين ١/ ٢٠٠ - فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد المبارك الحريملي النجدي - دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض.



ويمكرون ويمكر الله
والله خيرُ الماكرين



المكر هو إظهار أمر يعتقد الجاهل به غير حقيقته، والكيد والمكر لا يَدُلان أبدًا على القوة؛ إنما يدلان على ضعف؛ لأن الشجاع القوي يجاهر بعدائه؛ لأنه قادرٌ على عدوه، لكنَّ الضعيف هو من يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه، والقوي لحظة أن يمسك بخصم ضعيف قد يُطلِقه وقد يعاقبه، لأنه مطمئن أن قوته تستطيع أن تنال من هذا الضعيف وقتما أراد، لكن الضعيف حين يقبض على قوي، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر، ويضع في اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلاً، لذا يُخفي الماكر أمر مكره ويبيِّته بليل، ولذلك أنشد **أبو تمام** يقول:

وضعيفة فـإذا أصـابت فرصة ... قتلت... كذلك قدرة الضعفاء

ولحرمة المكر السيء وخبثه فقد ترفَّع عنه الصحابة الذين تربوا على موائد النبوة، فهذا **قيس بن سعد بن عبادة** رضي الله عنهما يقول:

لولا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**المكر والخديعة في النّار**»[1] لكُنْتُ من أمكر الناس.

والمكر مقلوب على صاحبه مرتدٌّ إلى قلبه كما استقرأ ذلك **محمّد بن كعب القرظي** من كتاب الله فقال: «ثلاث من فعلهنَّ لم ينْجُ حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣] ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس ٢٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾»[2].

(١) صحيح: رواه ابن عدي في الكامل كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٥٧. **وقيس** هذا داهية يتفجر حيلة وذكاء، وكان **قيس** يعدّ في الدهاة، وكانوا خمسة يومئذ، وهم: **معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل**، وهو الذي قال عن نفسه: لولا الاسلام، لمكرت مكرًا لا تطيقه العرب**!!** ولقد كان مع **علي** ضدَّ **معاوية**، وكان يقول: والله لئن قدّر لمعاوية أن يغلبنا، فلن يغلبنا بذكائه، بل بورعنا وتقوانا**!!**
(٢) الكشاف ٢/ ٥٦٣.



وإن كان المكر قبيحًا في حق البشر لكنه محمود في حق الله سبحانه كما قال الشاعر:

وَيَقْبُح من سواك الشيء عندي وتَفْعَلُــه فيحسُــنُ مِنْــكَ ذاكا

فكيف ذلك؟!

اسمع مني:

حين تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة، فمكر الله يكون تارة فعلاً يُقصد به مصلحة العبد ومنفعته، فهو محمود على سبيل المقصد والغاية.

ويكون تارة معناه الجزاء والمثوبة؛ أي يُجازي أهل المكر جزاء مكرهم.

ويكون تارة بأن لا يقبِّحُ مكر أعدائه في عيونهم، بل يزيِّنه لهم.

ويكون تارة بقطع توفيقه عنهم فيتخبطون.

ويكون تارة بإعطائهم ما يتمنون من دنياهم واستعماله في غير ما يحب، فيكون قد مَكَر بهم واستدرجهم إلى مصارعهم كما قال **الزمخشري**:

«مكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوِّه الكمين والبيات والغيلة»[1].

ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٦٣.



وهذا الذي اقتضى قول ربنا تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

ولذا اعتبروا أمن مكر الله كبيرة من الكبائر!

قال **الطاهر بن عاشور**:

«قال **الخفاجي**: الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية، وهو الاسترسال على المعاصي اتكالاً على عفو الله»[1].

ولأن الله يعلم ما يبيِّت أي إنسان، فإذا أراد الله إنفاذ أمر فلا يستطيع أحدٌ أن يواجِه إرادة الله وأمره، ولذا فمكر الله لا قِبَل لأحد بمواجهته ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فمكْر العباد مفضوح عند الله، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد، ولا يحتاط منه أحد؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين.

فطوبى لمن كان الله معه فمَكَرَ له، والويل كل الويل لمن عاداه ربه فمكر به.

إن المكر كله لله لأن مقادير الأمور بيده.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢]

قال **الطبري** رحمه الله:

«فلله أسباب المكر جميعًا وبيده وإليه، لا يضر مكر من مكر منهم أحداً إلا من أراد ضره به، فلم يَضُرَّ الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضره ذلك، وإنما ضروا به أنفسهم لأنهم أسخطوا ربهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم ونجّى رسله»[2].

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٢٥.
(٢) تفسير الطبري ٧/ ٤٠٨.



أهلكنَاهم لَمّا ظَلموا وجَعَلنا لِمَهلِكِهم موعِداً



أخرج ابن أبي حاتم عن العبَّاس بن عزوان في قوله:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾.

قال:

«قضى الله الْعقُوبَة حين عصي ثمَّ أَخّرهَا حتَّى جاء أجلهَا، ثمَّ أرسلها»[١].

فالعقوبة قرَّرها الله في اللوح المحفوظ بمجرد وقوع الظلم من الظالم، لكنَّ موعد تنفيذ العقوبة يظل في علم الله حتى يحل الموعد وتنزل الكارثة!

وأما كيفية الهلاك فقد شرحها الإمام المراغي رحمه الله في تفسيره قائلاً:

«وهلاك الله للأمم بالظلم ضربان:

(١) ضرب بعذاب الاستئصال للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلا لهدايتهم بالإيمان والعمل الصالح كقوم **نوح وعاد وثمود**، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم.

(٢) ضرب بعذاب هو مقتضى سنته تعالى في نظم الاجتماع البشرى، فالظلم مثلاً سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾، وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق، وإما ظلم الحكام الذي يفسد بأس الأمة ويهن من قوتها»[٢].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٤٠٧.
(٢) تفسير المراغي ١١/ ٧٦.



وقد اتفقت أفهام الصحابة على هذا لأنهم استقوا من معين واحد هو معين الوحي، وتربوا على مائدة واحدة مائدة القرآن، وكان من هؤلاء الحبر البحر ترجمان القرآن **عبد الله بن عباس** رضي الله عنه، وقد ذُكِر الظلم في مجلس **ابن عباس** فقال **كعب الأحبار**: إني لا أجد في كتاب الله المنزَّل أنَّ الظلم يخرب الديار! فقال **ابن عباس**:

«أنا أوجِدَكَه في القرآن، قال الله عز وجل: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾»[1].

ولذا قيل: الظلم أدعى شيء إلى تغيير نعمة وتعجيل نقمة، وهي مشاهدات التاريخ ومكرورات الأحداث، واسمع **صالح المري** رحمه الله وهو يقول عما شاهده:

«دخلتُ دار **المورياني**، فاستفتحت ثلاث آيات من كتاب الله، استخرجتها حين ذكرت الحال، فيها قوله عز وجل:

﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾،

وقوله: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾،

وقوله: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾.

قال: فخرج إليّ أَسْوَد من ناحية الدار فقال: يا أبا بشر! هذه سخطة المخلوق، فكيف سخطة الخالق؟!»[2].

يقصد بهذا أن ما ادَّخر الله للظالم في الآخرة أشد، وأن قصاص المظلوم منه عند القنطرة أو الصراط الثاني أشد وطأة وأعظم ألما، فعقوبتان للظالم لازمتان لا تتخلفان:

(١) عيون الأخبار ١/ ١٤٤.
(٢) البيان والتبيين ٣/ ١٠٣.



عقوبة دنيوية معجَّلة، وعقوبة أخروية مؤجَّلة، وقد أخبر النبي ﷺ أن أسرع الذنوب مؤاخذة هو البغي فقال:

«ما من ذنبٍ أجدر أن يُعجِّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يَدَّخِره له في الآخرة من البَغْيِ وقطيعة الرحم»[1].

إن الظلم يحمل في طياته بذرة زواله، ولذا لما سمع **مسلم بن يسار** رجلاً يدعو على من ظلمه قال له:

«كِل الظلوم إلى ظلمه، فهو أسرع فيه من دعائك إلا أن يتداركه الله بعمل، وقَمِنٌ أن لا يفعل»[2].

وهو انتقام الله من عدوه، وله طريقان كما رأى ذلك **جعفر بن محمد** عن أبيه فقال:

«إذا أراد الله أن ينتقم لوليه انتقم من عدوه بعدوه، وإذا أراد الله أن ينتقم لنفسه انتقم بوليِّه من عدوه!»[3].

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي عن أبي بكرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٦٤١.
(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣/ ٣١٠.
(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١/ ٢٧٠.



أنا عِند ظن عبدي بي

في الحديث القُدُسي:

«إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»[١].

فمعاملة الله لعبده تدور مع الظن، فإذا أحسن ظنه بربه بلَّغه ما أمَّل، وإذا تشاءم وأساء الظن بالله فالعقوبة إليه أسرع والشر منه اقترب.

جاء في عمدة القاري:

«قوله **«أنا عند ظن عبدي بي»** يعني: إن ظنَّ أني أعفو عنه وأغفر له فله ذلك، وإن ظن العقوبة والمؤاخذة فكذلك، ويقال: إن كان فيه شيء من الرجاء رجاه لأنه لا يرجو إلا مؤمن بأن له ربا يجازي، ويقال: إني قادر على أن أعمل به ما ظنَّ أني عامله به، وقال الكرماني: وفيه إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف»[٢].

وحسن الظن بالله معناه:

* ظن الإجابة عند الدعاء..
* وظن القبول عند التوبة..
* وظن المغفرة عند الاستغفار..
* وظن مجازاة الله لعبده خير الجزاء عند أداء الطاعة بشروطها..

ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقنًا بأن الله سيقبله ويغفر له، لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد ضدَّ ذلك فهو اليأس من رحمة الله وهو

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن واثلة كما في صحيح الجامع رقم: ١٩٠٥.
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٥/ ١٠١ - بدر الدين العيني - ط دار إحياء التراث العربي.



من الكبائر.

كمْ فــرجٍ بَعْــدَ إيــاسٍ قــد أتــى   **وكمْ ســرورٍ قــد أتــى بَعْــدَ الأســى**

من يحسنِ الظنَّ بذي العرشِ جنى   **حُلْوَ الجنَى الرائقَ من شَـوْكِ السَّفا**

ولهذا كان **ابن مسعود** رضي الله عنه يحلف بالله تعالى ما أحسن عبد بالله تعالى ظنَّه إلا أعطاه الله تعالى ذلك لأن الخير كله بيده[1]، فإذا رزق الله عبدًا حسن الظن به فقد أعطاه مفتاح الخير وسر العطايا.

والذي حسن ظنه بربه يرى ببصيرة قلبه ما يتمناه قبل أن يتحقق واقعا بين يديه، وهذا ما اعتاده **أحمد بن العبّاس النمري** حين أنشد يقول:

وإنّـي لأرجـو الله حتّـى كأنّنـي   **أرى بجميل الظّنّ ما الله صانع**[2]

وحينها يكون إغلاق الأبواب كلها في وجه العبد هو الباب الوحيد المفتوح ناحية الله! والشدة عين الفرج، وهو ما قاله **علي بن الحْسن بن نصر بن بشر** الطَّبيب:

«فإنَّا قد نستقري الكرماء، فنجدهم يرفعون من أحسن ظَنَّه بهم، ويحذرون من تخييب أمله فيهم، ويتحرَّجون من إخفاق رجاء من قصدهم، فكيف بأكرم الأكرمين؟! الذي لا يُعْوِزُه أن يمنح مؤمِّليه ما يزِيد على أمانيهم فيهِ، وأعدل الشواهد بمحبة الله جلَّ ذكره، وتمسك عبده برحابه، وانتظار الرَّوح من ظله ومآبه، أن الإنسان لا يأتيه الفرج ولا تُدْرِكه النجاة، إلَّا بعد إخفاق أمله في كل ما كان يتوجَّه نحوه بأمله ورغبته، وعند انغلاق مطالبه وعجز حيلته، وتناهي ضره ومحنته، ليكون ذلك باعثا له

---

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا رقم: ٩٦.
(٢) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا رقم: ١٠٠.



على صرف رجائه أبدا إلى الله عز وجل، وزاجرا له على تجاوز حسن ظنِّه به»[1].

والمقادير بيد الله وحده، وإذا رضي عنك أدهشك عطاؤه وأتحفتك نعماؤه، ولذا قيل:

إن المقاديــر إذا ساعَدَت ... ألحقت العاجز بالحازم



يقين أحمد!

كتب رجُلٌ من إخوان أبي عبد الله أحمد بن حنبل إليه أيام المحنة أبياتًا من الشِّعر يصبِّره بها:

هــذي الخطـوب ستنتهي يا أحمد ... فإذا جزِعت من الخطوب فمن لها

الصَّبر يقطع ما تـرى فاصبر لها ... فعســى بها أن تـنـجلــي ولـعلَّـهـا

لكن إيمان الإمام لا يقبل الظن الذي تحتمله كلمة (لعلَّها)، وإيمانه لا يرضى الشك والارتياب بل ليس عنده إلا الثقة واليقين، ولذا أجابه الإمام أحمد قائلاً:

صبّـَرتنــي ووعظتنــي فأنــا لها ... فستنجلــي بــل لا أقـــول لعلَّها

ويحُلُّها مــن كان يملك عقــدها ... ثـقــة بــه إذْ كــان يـمـلك حلَّها

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي ١/ ١٦٣ – ط دار صادر.



وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً
أتصبرُونَ



قال ابن القيم في إغاثة اللهفان وهو يبيِّن الحكمة من اختلاف الخلق:

«وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض،

فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم.. وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم،

وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلِّمونهم وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم، ولوازم ذلك؟

وامتحن الجُهَّال بالعلماء؛ هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك،

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالغنياء،

وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء،

والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة،

وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به،

وامتحن الرجل بامرأته، وامرأته به،

وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال،

والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين،

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم،



ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل فتنةً لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]»[1].

وقد قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هنا، فليس لمن فُتِنَ بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صَبَرَ كانت الفتنة ممحِّصة له، ومخلِّصة من الذنوب، كما تخلِّص النار خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفتنة قسمت الناس فريقين: صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمن ومنافق، وطيبٍ وخبيثٍ، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد في النار والعياذ بالله، فالنار فتنة من لا صبر له على فتن الدنيا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤].

حكى الإمام **القرطبي**: «ومعنى هذا أنَّ كُلَّ واحد مُخْتَبَرٌ بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منها على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لم لم نُعاف؟

والأعمى يقول: لم لم أُجْعَل كالبصير؟

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ١٦١.



وهكذا صاحب كل آفة.

والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره.

وكذلك العلماء وحُكّام العدل.

فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر.

وقول الله تعالى ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾ محذوف الجواب، يعني أم لا تصبرون، فيقتضي جوابًا كما قاله **المزني**، وقد أخرجته الفاقة (الفقر) فرأى خصيًا في مراكب ومناكب، فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية: ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾؟! فقال: بلى ربنا! نصبر ونحتسب.

وقد تلا **ابن القاسم** صاحب الإمام **مالك** هذه الآية حين رأى **أشهب بن عبد العزيز** في مملكته عابرًا عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصبر»[1].

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ١٨. فائدة: **أشهب**: هو **أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري الجعدي**، فقيه الديار المصرية في عصره، وصاحب الإمام **مالك**. توفي سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م.

قال **الشافعيّ**: ما أَخْرَجَتْ مصر أَفْقَهَ من **أشهب** لولا طَيْش فيه.

قال **محمد بن عبد اللّه بن الحكَم**: رأيت **أشهب بْن عَبْد العزيز** ساجدًا، وهو يقول في سجوده: اللَّهم أمت **الشافعيّ** ولا تُذهِب عِلْم **مالك**.

فبلغ **الشّافعيّ** ذلك، فتبسّم وأنشأ يقول:

تمنّى رجال أن أموت وإن أمُتْ ... فتلك سبيلٌ لستَ فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... لئن مت ما الداعي عليّ بمُخلَّد

قال: فلما مات **الشافعي**، اشترى **أشهب** من تركته عبدا، ثم مات **أشهب**، فاشتريت أنا ذلك العبَد، وذكروا أنه كان موت **أشهب** بعد **الشافعي** بشهر وقيل بثمانية عشر يومًا.

وفضَّله **محمد بن عبد الله بن عبد الحكم على ابن القاسم** في الرأي حتى إنه قال: **أشهب** أفقه من **ابن القاسم** مائة مرة.



وهو استفهام توبيخي إنكاري كذلك يفيد وجوب الصبر؛ لأن الله امتحن المؤمنين بأعدائهم، ولولا ذلك لما كانت لهم الجنة.

وما أروع كلمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصف بها الحكمة من خلق الخلق ودورهم في نصرة الحق، فقال رحمه الله: «**إن الله لا يُسلِم الحق، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه، فإذا لم يغاروا عليه غارَ هو عليه**»[1].

والناس تنفر من الفتنة وتخافها، وهذا لا يصح؛ لأن الفتنة تعني الاختبار، وهي مأخوذة من فتنة الذهب حين يُصْهر، فالذي ينبغي أن نخشاه هو نتيجة الفتنة، لا الفتنة نفسها، فالامتحان فتنةٌ للطلاب، والطالب المجتهد يسعى بحماسة إلى الاختبار ليثبت تفوُّقه، ومن أخفق في البذل أخفق يوم النتيجة، وكانت الفتنة في حقِّه شرًّا.



أوهام الفتنة!

وبعض الناس يتخذ من الفتنة ذريعة لعدم الصدح بكلمة الحق وترك إنكار المنكر وعدم مواجهة الظالم، وهذا والله من العجائب، ويفتح باب تمييع الحق ولبسه بالباطل، وقد عرض لهذه الشبهة القديمة ابن بطال حين استعرض حوارًا مع أحد أصحاب هذا الفهم السقيم ثم روى تفاصيله:

«الفتنة في كلام العرب الابتلاء والاختبار، فقد يكون ذلك بالشدَّة والرخاء

(١) تفسير الشعراوي ١٦/ ١٠٠٤٠، ١٠٠٤١– ط مطابع أخبار اليوم.



والطاعة والمعصية، وكان حقًا على المسلمين إقامة الحق ونصرة أهله، وإنكار المنكر والأخذ على أيدى أهله، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الحج: ٤١] كان معلومًا أن من أعان في الفتنة فريقَ الحق على فريق الباطل، فهو مصيب أمر الله تعالى.

ولا يخلو المفتئتون من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يكون كلاهما محقين أو كلاهما مبطلين أو أحدهما محقًا والآخر مبطلاً؟ فإن قال: نعم. قيل له:

أو ليس الفريقان إذا كانوا مبطلين حقَّ على المسلمين الأخذ على أيديهما إن قدروا على ذلك وإن لم تكن لهم طاقة؛ فكراهة أمرهما والقعود عنهما وترك معونة أحدهما على الآخر فقد أوجب معونة الظالم على ظلمه، وذلك خلاف حكم الله.

ويقال له:

أرأيتَ إن كان أحد الفريقين مُحِقًّا والآخر مبطلاً.. أيجب على المسلمين معونة المحق على المبطل؟

فإن قال: لا، فقد أوجب ترك الساعي في الأرض بالفساد، وهذا خلاف قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فإن قال: تجب معونة المحق على المبطل، فقد أوجب قتال الفرقة الباغية.



وأما الحالة الثالثة، فإنها حالة ممتنع في العقل وجودها، وذلك حال حرب فريقين من المسلمين يقتتلان وهما جميعًا محقان في ذلك»[1].



النجاح في الفتن!

أمرٌ شديد الأهمية هنا.. أن الناس يفسِّرون اليوم الفتنة على اعتبار ما يفوتهم من أمر دنياهم، لا على ما يفوت من أمر دينهم، وهذا خطأ، والإسلام إنما قصد بالفتنة نقصان الدين لا الدنيا، فحفظ الدين هو أولى مقاصد الشريعة وأجلُّ مطالبها.

ولذا أشار **حذيفة** رضي الله عنه إلى علامة بارزة من علامات الفتنة وهو التحوُّل وتغيُّر الثوابت والمبادئ، فقال وهو يصنع مقياسًا يقيس به العبد قربه من الفتنة أو بعده عنها:

«إذا أحبَّ أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر فإن كان رأى حلالاً كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا كان يراه حلالاً فقد أصابته»[2].

وأشد الناس وقوعًا في الفتنة وسقوطًا في الاختبار: عالمٌ بلا عبادة، أو عابدٌ بلا علم، أو عالمٌ عابدٌ بلا افتقار واستعانة.

(١) شرح ابن بطال ١٠/ ٢٤-٢٨ بتصرف.
(٢) المستدرك على الصحيحين رقم: ٨٤٤٣ - الحاكم - دار الكتب العلمية - بيروت.



فإياك أن تغتر يوما بعلمك أو عملك، وسل الله الثبات!

لقد قال الله لنبيه ﷺ:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾

[النساء: ١١٣].

وهذا مع رسول الله ﷺ، فكيف بنا نحن؟!

ولذا يظل الخوف من السقوط أقوى عامل من عوامل الثبات! ومن أكثر من طلب الثبات أُعطِيه، ومن قصَّر في الطلب حُرِم، فكيف يشكو بعدها تغير الحال وما تقدَّم بالسؤال؟!

العلم إذن لازمٌ لاجتياز بوابة الفتن، فكثيرٌ من الساقطون دفعهم إلى السقوط جهلهم وعدم تمييزهم ابتداء بين الحق والباطل، ولذا قال **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه:

«الفتنةُ حقٌّ وباطلٌ يشتبهان، فمن عَرَف الحقَّ لم تضُرَّه الفتنة»(١).

فالجهل إذن من أهم أسباب الفتنة، وسبب سقوط كثير من الناس، ولقد سُئل **حذيفة**: أي الفتنة أشد؟ قال:

«أن يُعرض عليك الخير والشر لا تدري أيهما تتبع»(٢).

ولذا ربطت الأحاديث بين فشو الجهل وانتشار الفتن في تلازمٍ وثيق، فقال

(١) كتاب الفتن ١/ ٦٨ – نعيم بن حمّاد – ط مكتبة التوحيد – القاهرة.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٥٠٣.



النبي ﷺ:

«إن من أشراط الساعة أن يفيض المال، ويكثر الجهل، وتظهر الفتن، وتفشو التجارة»(١).

لكن العلم إذا لم يصاحبه عبادة كان كالوتد الملقى على الأرض دون أن ينغرس فيها.. هل يصُدُّ ريحا أو يقي من حرٍّ؟!

ولذا فلما لم يتقوَّ العالم بالعبادة كان علمه سبب فتنته مهما علا واشتهر، وهذا من خفيِّ الفتن وأصعب ألوانها، ولهذا أمرنا النبي ﷺ بأن نتدرَّع بدرع الوقاية فقال:

«تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظَهَر منها وما بَطَن»(٢).

وفي غياب العلم تظهر أزمة المصطلحات ولبس الحق بالباطل، فتقليب الحقائق من أعظم الفتن:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨]..

وحرب المصطلحات اليوم دائرة رحاها على أشدها، وذلك تحت تأثير سيل جارف من التضليل الإعلامي المستخدم في إخفاء الحقائق وإظهار عكسها، والهدف أن يصبح الحلال في وعي الجماهير حرامًا، والحرام حلالاً، والمقاومة إرهابًا، والظلم حزمًا وسياسة، والحق باطلاً، والباطل حقًا، والعدو صديقًا، والصديق عدوًا،، ولا

(١) رواه النسائي والحاكم في المستدرك واللفظ له كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٦٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن زيد بن ثابت كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٦٢.



يقوى على مقاومة هذه الفتنة إلا العلماء الربانيون، وأما علماء السوء فهيهات هيهات! وهذه هي الفتنة الحقيقية والبلاء المبين.

قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم فيها الكبير، ويربوا فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة فإذا غيرت قالوا: غُيِّرت السنة؟

قالوا:

ومتى ذلك يا **أبا عبد الرحمن**؟

قال:

«إذا كثُر قرَّاؤُكم وقلَّت فقهاؤُكم، كثُرت أُمراؤكم وقلَّت أُمناؤكم، والتُمِست الدنيا بعمل الآخرة»[1].

وهذا العالم هو عالم السوء الذي يُبغِضه الله كما أخبر عن ذلك النبي ﷺ:

«إن الله تعالى يُبغِض كل عالمٍ بالدنيا جاهلٍ بالآخرة»[2].

(١) سنن الدارمي، المقدمة باب تغيير الزمان وما يحدث فيه (ص ٥٨ ح ٩١، ٩٢). وانظر جامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ١٨٨).

(٢) صحيح: رواه الحاكم في تاريخه عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٧٩.



ولم أُكن بدعائك رب شقيًا



يقول **زكريا** عليه السلام وهو يستشفع عند ربه ويتوسَّل إليه:

أي ولم أعهد منك يا رب إلَّا الإجابة في الدُّعاء، ولم ترُدَّني قطُّ في ما سألتُك، فلا تقطع عادتك، ولا تمنع جميلك، وكما لم أشق بدعائي فيما مضى، فأنا على ثقة أني لن أشقى به في ما بقي.

قال **ابن القيم**:

«والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من أجابته وإحسانه كما حُكِي أن رجلاً سأل رجلاً وقال أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا وكذا، فقال مرحبًا بمن توسل إلينا بنا، وقضي حاجته، وهذا ظاهر ها هنا، ويدل عليه أنه قدَّم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوَّده من قضاء حوائجه إلى ما سأله»[1].

وهذا يستدعي ذاكرة عبدٍ شاكر، يستحضر سابق نعم الله عليه ولا ينساها، ويعدِّد تفريجات الله عليه في الكُرِب وعطاياه له في المِحَن ليزرع بذلك في قلبه رجاءً جميلاً يستجلب به من ربه فضلاً عظيمًا.

قال **ابن عطية** رحمه الله:

«شَكَرَ لله تعالى على سالف أياديه عنده.. معناه أي قد أحسنت إليَّ في ما سلف،

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٤.



وسعِدْتُ بدعائي إياك، فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله»[١].

ومعنى الشقاء هنا هو عدم تحقق المراد وفوات المصلحة كما قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«يُقال: شقي فلان بكذا: إِذا تعب بسببه، ولم ينل مراده»[٢].

وقال **القرطبي** رحمه الله:

«وهذه وسِيلةٌ حَسَنَةٌ أن يتشفع إليه بنعمه، ويستَدِرَّ فضلَه بِفضله»[٣].



وهي الحكمة التي أرشدك إليها **ابن عطاء** في إحدى حكمه فقال:

« إن لم تحسِّن ظنك به لأجل وصفه، حسِّن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عوَّدك إلا حَسناً ؟ وهل أسدى إليك إلا مننا؟!».

يقول لك إن لم يكن حسن ظنك بالله لِأَجل صفاته العلا، وأنه على كل شئ قدير، وهو الجواد الكريم، فلتحسِّن ظنك به لما عاملك به، وتعرَّف عليه بفضله ونعمه إن لم تتعرف عليه بأسمائه وصفاته، واستعن به واعتمد عليه للنفع الذي طالما نالك منه إن لم يكن لجميل وصفه.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤/ ٤.
(٢) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ١١٧.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٨٠.



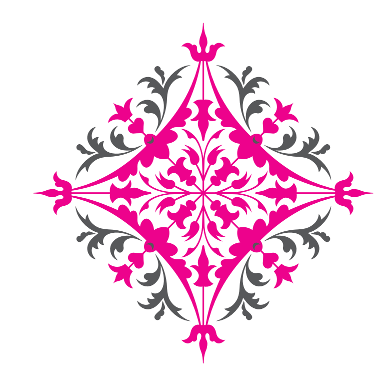
يوقن الطفل أن أبويه لا يُريدان به إلا خيرا حتى ولو تبرَّم من أوامرهما، فما بالنا لا نثق في الله الثقة التي يتمتع بها الطفل الصغير تجاه والديه؟!

رحم الله **أحمد بن المعدل**، فكان إذا أحزنه أمر قام في الليل يصلي، ويأمر أهله بذلك، وهو يتلو:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.

ثم ينشد:

أشكو إليك حوادث أقلقنني	فتركتني متواصل الأحزان
لولا رجاؤك والذي عوَّدتني	من حُسْن صُنعك لاستطار جَناني
من لي سواك يكون عند شدائدي	إن أنت لم تكلأ فمن يكلاني[1]



(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٤/ ٩.



إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ



وفي الآية استعارة تمثيلية، فقد شبَّه كونه تعالى حافظًا لأعمال العباد، مترقِّبًا لها، ومجازيًا على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منه أحد بحال، بمن قعد على الطريق مترصِّدا لمن يسلكها ليأخذه، ويوقع به ما يريد.

قال **عبد الله بن عباس** رضي الله عنه:

«إن ربك لبالمرصاد قال: يسمع ويرى»[1].

والمرصاد في اللغة كذلك هو المكان الذي يجد فيه الراصد العدو.

قال **القرطبي**:

«أي على طريق العباد لا يفوته أحدٌ، والمرصَد والمِرصاد: الطَّريق»[2].

وهذا مَثَل لإرصاده العباد، وأنهم لا يفوتونه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه عالم بما يصدر من جوارحهم، بل وبمكنونات ضمائرهم، فيجازيهم عليه؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وهو ما فهمه العرب أصحاب الفطرة، فلما قيل لبعضهم:

أين ربك؟!

قال: بالمرصاد!

ولذا وعظ العلماء بها الحكام تحذيرا لهم من عاقبة الظلم، فلما قرأ **عمرو بن عبيد** هذه السورة على الخليفة **أبي جعفر المنصور** حتى بلغ هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾،

(١) الدر ٨/ ٥٠٧، ٥٠٨.
(٢) تفسير القرطبي ٢٠/ ٥٠.



فقال:

يا **أبا جعفر**!

وأنه عرَّض له في هذا النداء بأنه بعض من توعده الله بذلك من الجبابرة.

قال **الزمخشري** معلِّقًا:

«فلله دره! أيُّ أسد فَرّاس كان بين ثوبيه، يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه»[1].

فهذه الآية تبث في القلوب السكينة والطمأنينة في قلب كل مسلم، لأنه يثق أن الكون له رب يدبِّر الأمر فيه، ويراقب أفعال العباد، ثم يجازيهم عليها في الدنيا قبل الآخرة، وأنه لا يفلت أحد من العباد من عواقب عمله، فمن عمل خيرًا جازاه، ومن بغى واستطال أمهله ثم أخزاه.



قال **الماوردي** رحمه الله:

«حكي أن **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** تفاءل يومًا في المصحف، فخرج له قوله

(١) السراج المنير ٤/ ٥٣٣ - محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي - ط مطبعة بولاق. في الصحاح «قصعت الرجل» صغَّرتُه وحقَّرتُه.

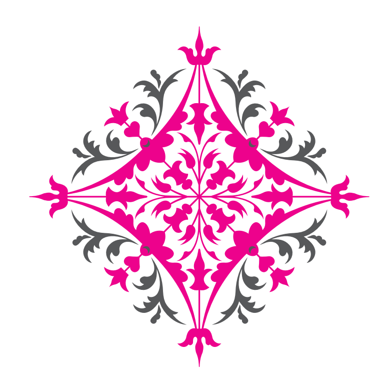


تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] فمزَّق المصحف، وأنشد يقول:

أتـوعِـدُ كل جبـار عنيـد ... فها أنا ذاك جبـار عنيـد

إذا ما جئت ربَّك يوم حشرٍ ... فقل: يا ربُّ مزَّقَني الوليد

فلم يلبث إلا أيامًا حتى قُتل شر قتلة، وصُلِب رأسه على قصره، ثم على سور بلده، فنعوذ بالله من البغي ومصارعه، والشيطان ومكائده، وهو حسبنا وعليه توكلنا»[١].



(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص٣١٧.



أَمَّن يُجيبُ المُضطَّر



دخل طاوس اليماني على عبيد الله بن أبي صالح يعوده من مرضه، فقال له عبيد الله:

ادعُ الله لي يا أبا عبد الرحمن!

قال:

«ادعُ لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه»[1].

وجاء رجُلٌ إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك با لله أن تدعو لي فأنا مُضْطَرٌّ، فقال:

«إذا فاسأله فإنَّه يُجيبُ المضطَّر إذا دعاه».

فمن هو المضطر بحق؟!

فاسمع أقوالهم:

قال ابن عبَّاس: هو ذو الضَّرورة المجهود.

وقال السُّدِّيُّ: الذي لا حول له ولا قوة.

وقال ذو النُّون: هو الَّذي قطع العلائق عما دون الله[2].

ومن أنواع المضطرين: المريض، ولذا كان طاوس يقول:

«دعاء المريض مستجاب، أما سمعت قوله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ»[3].

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٥٤.
(٢) القرطبي ١٣/ ٢٢٢.
(٣) اللطائف والظرائف ٢٦٧ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي – دار المناهل، بيروت.



وصدق الشَّاعر المؤمن ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ حين حكى تجربته العملية قائلاً:

وإني لأدعو الله والأمر ضيِّقٌ … عليَّ فما ينفكُّ أن يَتَفرَّجا

ورب أخٍ سُدَّت عليه وجوهُه … أصاب لها لما دعا الله مخرجا

سبحانه فارج الهمِّ وكشَّاف الكُرَب! هو من ساءل الكفرة.. من بارزوه بالعصيان حين عدَّد عليهم نعمه في كتابه العزيز، فقال:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فسبحان من أشهد الكفار على إجابته دعوة المضطرين منهم!

فما بالك بالمضطرين من عباده المؤمنين؟!

ولذا قيل في قيمة الاضطرار وأثرها على إصابة سهم الدعاء:

«خيرُ الدعاء ما هيَّجَته الأحزان»[١].

وسبب إجابة دعوة المضطرين هو ما ذكره الإمام **القرطبي**:

«والسبب في ذلك أنَّ الضرورة إليه باللَّجَأ ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقعٌ وذمّةٌ وُجِدَ مِنْ مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر»[٢].

وانظر اضطرار سيد الخلق ﷺ وتقطع أسبابه يوم بدر لتذوق معنى الاضطرار، ثم

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٢٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٢٣.



تقلّد شعوره في دعائك، وتسلك طريقه في رفع حاجاتك: رفع يديه ﷺ داعيًا حتى سقط الرداء عن كتفيه ورؤي بياض إبطيه، وهو يلهج:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض».

فما زال يهتف بها مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه متأثّرا بحاله، ثم التزمه من ورائه قائلاً:

يا رسول الله! كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

كان هذا دعاء سيد النبيين وقدوة العالمين ﷺ وهو يعلّم أمته فنَّ الاضطرار وسبل الافتقار، فما أسرع الخير والمدد بالانهمار ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وهنا خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش، ثُمَّ انتبه وقال:

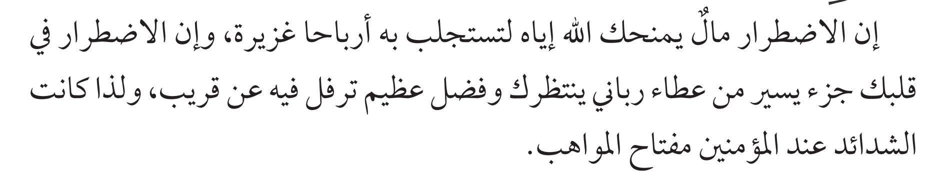
«أبشِر يا أبا بكر! أتاك نَصْرُ الله.. هذا جبريل آخِذٌ بِعنان فرس يقوده على ثناياه النَّقع».

واسمع ما مرَّ **بأبي حامد الغزالي** رحمه الله من شدة كادت تعصف بدينه وإيمانه، وما لقيه من شهوات وشبهات لم ينجّه منها إلا دعاء المضطرين:

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن



أدرس يومًا واحدًا تطييبًا للقلوب المختلفة إليَّ، فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة... ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى، التجاء المضطر الذي لاحيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب»[١].



ولذا جاء في الحكم العطائية:

«ما طلب لك شيءٌ مثل الاضطرار، ولا أسرعَ بالمواهب مثل الذلة والافتقار».

إن الاضطرار مالٌ يمنحك الله إياه لتستجلب به أرباحا غزيرة، وإن الاضطرار في قلبك جزء يسير من عطاء رباني ينتظرك وفضل عظيم ترفل فيه عن قريب، ولذا كانت الشدائد عند المؤمنين مفتاح المواهب.

ولعل هذا ما اكتشفه **ابن القيم** رحمه الله في قيمة كنز الاضطرار الذي أهدته له أيادي المحن، وذلك حين قصَّ تجربته الإيمانية قائلاً:

«من كمال إحسان الرَّب تعالى أن يُذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر، ويُعَرِّفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بِضِدِّها»[٢].



(١) المنقذ من الضلال ص ١٧٤، ١٧٥- ط دار الكتب الحديثة.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٠٦.





دعوات المكروب

واسمع ماذا كان يقول ﷺ عندما يُحزِنه شيء في كلمات تعبِّر عن اضطراره وغاية افتقاره:

«كان إذا كرَبه أمر قال: يا حي يا قيوم.. برحمتك أستغيث»[١].

وهو ما أوصى به ابنته **فاطمة** رضي الله عنها في كلمات تنبعث منها حرارة الحاجة ولوعة الفاقة، ثم أوصاها أن تكرِّر ذلك مرتين يوميا كجرعة لازمة واقية من الكروب والأحزان:

«ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدا»[٢].

وقوله ﷺ كذلك **لأسماء بنت عميس**.. يعلِّمها قطع الروابط والعلائق إلا بالله، وذلك بترديد كلمة التوحيد مع كل كرب شديد:

«ألا أعلمك كلمات تقولهن عند الكرب؟ اللهُ.. الله ربي لا أشرك به شيئا»[٣].

يا خالق الخلق يا رب العباد ومن ... قد قال في محكم التنزيل ادعوني

إنّي دعوتك مُضطرا فخُذ بيدي ... يا جاعل الأمر بين الكاف والنون

(١) حسن: رواه الترمذي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٧٧.
(٢) صحيح: رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة والبيهقي في الأسماء كما في السلسلة الصحيحة رقم:٢٢٧.
(٣) حسن: رواه أحمد،ابو داود ابن ماجه عن أسماء بنت عميس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٢٣.

نجَّيتَ أيــوب من بلـواه حيــن دعا | بصبــر أيــوب يا ذا اللطف نجّينــي

واطلق سراحي وامنُن بالخلاص كما | نجَّيتَ من ظلمات البحـر ذا النــون



كيف الوصول؟!

لكن كيف تصل إلى هذا الاضطرار؟!

وكيف تعلم أنك قد حصَّلت ما ينفعك منه وبلَّغك مقصودك؟!

وهل لذلك علامات؟!

أجاب على هذا **مُوَرِّقٌ العِجلي** رحمه الله، فوصف لك صورة المضطر بحق كي تقارن دعاءك به، وتحشو قلبك بما في قلبه، وتقصِّر بذلك السِّكة إلى العطاء، وتختصر الطريق إلى إجابة الدعاء، فقال رحمه الله:

«ما وجدتُ للمؤمن مثلاً إلاَّ رجلاً في البحر على خشبة، فهو يدعو يا ربِّ يا ربِّ، لعل الله عزَّ وجلَّ أن ينجيَه»[1].

يا خالق الخلق يا رب العبــــاد ومن | قد قال في محكم التنــزيل ادعوني

إنّــي دعوتك مُضطرا فخُذ بيــدي | يا جاعل الأمر بين الكاف والنــــون

نجَّيتَ أيــوب من بلواه حيــــن دعا | بصبر أيــوب يا ذا اللطف نجّينــــي

واطلق سراحي وامنُن بالخلاص كما | نجَّيتَ من ظلمات البحر ذا النـــون

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص ٢٤٧ – ط دار الكتب العلمية.

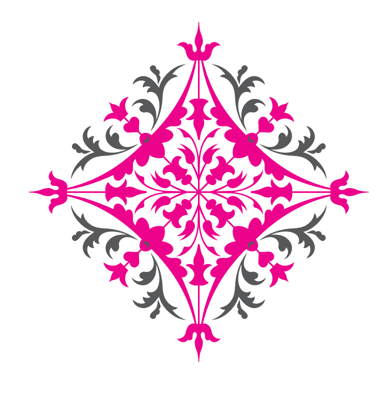


وانقطاع الأسباب هو أوسع باب من أبواب الرجاء، وتسلق قمة الاضطرار هو الذي يوصلك إلى أفضل العطايا، وانظر كيف فطن الإمام **الجنيد** رحمه الله إلى هذه اللطيفة، فحين جاءته امرأة شاكية: ادعُ اللهَّ تعالى لي فإن ابنا لي ضاع، فقال: اذهبي واصبري، فمضت ثُمَّ عادت فقالت مِثل ذلك، فقال لها **الجنيد**: اذهبي واصبري فمضت، ثُمَّ عادت ففعلت مِثل ذلك مرات، **والجنيد** يقول لها: اصبري، فقالت: عيل صبري ولم يبق لي طاقة، فادع لي، فقال **الجنيد** رحمه الله:

إن كان كما قُلْت فاذهبي، فقد رجع ابنك!

فمضت ثُمَّ عادت تشكر له، فقيل **للجنيد**: لم عرفت ذلك؟ فقال: قال الله تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]»[1].



(١) الرسالة القشيرية ١/ ٤٢١، ٤٢٢.



رب إني مسني الضُر
وأنت أرحَم الراحمين



قال **ابن القيم** رحمه الله:

«جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه، وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات، ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره»[1].

ورغم أن كلمات هذا الدعاء لا تحمل معنى الطلب، ولا نبرات الدعاء، لكنها من أبلغ أنواع السؤال، وقد سئل **سفيان بن عيينة** عن حديث رسول الله ﷺ:

«أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[2].

وإنما هي ذكر ليس فيه دعاء.

قال **سفيان**: سمعت حديث **منصور عن مالك بن الحارث**، يقول الله تعالى:

«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[3]؟!

قلت: نعم.

قال: ذلك تفسير هذا، ثم قال: أتدري ما قال **أمية** حين أتى **ابن جدعان** يطلب منه نائلة ومعروفه؟

(١) الفوائد ١/ ٢٠١.
(٢) حسن: رواه مالك عن طلحة بن عبيد بن كريز مرسلا كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٥٠٣.
(٣) ضعيف: رواه الترمذي عن أبي سعيد كما في ضعيف الجامع رقم: ٦٤٣٥.



قلت: لا. قال: لما أتاه قال:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك إنَّ شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما	كفاه من تعرُّضك الثناء

قال **سفيان**:

فهذا مخلوق حين يُنسَب إلى الجود قيل: يكفينا من تعرضك الثناء عليك حتى تأتي على حاجتنا، فكيف بالخالق؟»[1].

وهذا من حسن الأَدب في السُّؤال والدُّعاء، فقول القائل لمن يعظِّمه ويطمع في فضله: أنا جائع.. أنا مريض.. هو حُسْنُ أدبٍ في السُّؤال، وفيه إظهار حاله والإخبار به على وجه الذُلِّ والافتقار، وهو متضمِّن لسؤال الحال وهو أبلغ من سؤال المقال، أما قوله (أطعمني وداوِني) فهو طلب جازم من المسئول.

وهي قمة الشكوى إلى الله كما رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا! تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عرَتك بلية فاصبر لها	صبر الكريم فإنَّه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما	تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وهو من عظيم الأدب مع الله سبحانه، وجميل الطلب منه، فلم يقل **أيوب** عليه السلام تصريحًا: عافني واشفني، بل فوَّض الأمر لله وحده، وتوسَّل إليه باسم من أسمائه وأحد أحب صفاته، واثقًا في حسن صنعه وتدبيره؛ يرشدنا بذلك إلى سلوك هذا السلوك، وأن نتصرف مع ربنا تصرف العبد المملوك..

(١) فضائل الأوقات للبيهقي ١/ ٣٦٩، ٣٧٠.



قال **سيد قطب** رحمه الله وهو يرسِّخ هذا الأدب البشري في دعاء الرب جل في علاه:

«**أيوب** هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ووصف ربه بصفته: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه، تأدبًا معه وتوقيرًا، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب من ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة، وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء»[1].



مع الله!

نشكو إليك منا، ونستعين بك علينا، ونتقوي بك على ضعفنا، ونتترَّس بك أمام خوفنا، ونثق في حُسن تدبيرك لنا، ونلح عليك مرات ومرات مع صرخات ذُلنا وانكسارنا، وكما قيل: الإمداد بحسب الاستعداد، فعلى قدر إناء افتقارك وسعة وعاء التجائِك يكون انهمار المدد منه والأعطيات. قال **إقبال**:

عطايانا سحائب مرسلات	**ولكن ما وجدنا السائلين**
وكل طريقنا نور ونور	**ولكن ما رأينا السالكينا**

(١) في ظلال القرآن.





من أكمل صيغ الدعاء!

ولأن الصِّيغة التي تتضمن حال السائل والمسئول مِنْ أكمل صيغ الدعاء المُفْضي إلى الإجابة، فلذا جاء كثير من الأدعية النبوية على هذا المثال؛ مِثل قول النَّبي ﷺ **لأبي بكر الصديق** رضي الله عنه: **«قل اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»**(١).

والمح في هذا الدعاء سؤال الله بصفاته التي تستدعي الإجابة وتستعطف الكريم، وهو وصف الرب سبحانه وتعالى بالمغفرة والرَّحمة، وهذا من استجداء الرحمة من الرحيم بأحب ما يحب ربنا ويرضاه.

قال **ابن القيم**:

«فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن ابن عمر وأبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٠٠.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٩١.





فما قصة أيوب عليه السلام؟! وما خبر ابتلائه؟

اسمع: «إن أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد. قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به.. فلما جاء إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير إن الله يعلم أني كنت أمُرُّ بالرجلين يتباعدان يذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأؤلف بينهما كراهة أن يذكر الله لا في حق.. وكان يخرج لحاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فاستبطأته فأتته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله المُبْتلى؟ والله على ذاك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإني أنا هو»[1].

وجزاء هذا الصبر الطويل، ومكافأة له على عدم شكواه ورفع بلواه إلا لمولاه، فقد مدحه الله في كتابه، وما أعظم هذا الصبر حتى يمدحه الله جل في علاه، وليست مدحة واحدًا بل ثلاث مدحات متتاليات: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

(١) الدر ٥/ ٦٥٩.



يُدبِرالأمر

والتدبر هو النظر في عاقبة الأمر، وأما التدبير فهو النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العواقب.

قال **القرطبي**: «﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾:

قال **مجاهد**: يقضيه ويقدره وحده.

قال **ابن عباس**: لا يُشرِكه في تدبير خلقه أحد.

وقيل: يبعث بالأمر.

وقيل: ينزل به.

وقيل: يأمر به ويمضيه.

والمعنى متقارب، فجبريل للوحي، وميكائيل للقطر، وإسرافيل للصور، وعزرائيل للقبض، وحقيقته تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها، واشتقاقه من الدبر، والأمر اسم لجنس الأمور»[(١)].

وحتى المشركون علموا هذا فقال ربنا عنهم حين ساءلهم:

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

فالحادثات صادرة عن تقديره، وحاصلة بتدبيره، فلا شريك له يعضِّده، ولا يشرِك في تدبير خلقه أحدًا، وما قضى به فلا أحد يقدر على ردِّه، ولكنه مع هذا ليس أي قضاء، بل فيه غاية الحكمة التي تليق بربنا الحكيم، وهو ترتيبٌ للوجود يجعل كل شيء

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٠٨.



موضوعا في مكانه بحكمة بالغة.

قال **الزمخشري** رحمه الله:

«يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحرّي للصواب، الناظر في أدبار الأمور وعواقبها، لئلا يلقاه ما يكره آخرًا، والأمر أمر الخلق كله، وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش»[١].

وقال **سهل التستري** رحمه الله:

«يقضي القضاء وحده، فيختار للعبد ما هو خير له، فخيرة الله خير له من خيرته لنفسه»[٢].

سبحانه..

لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض..

ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل..

ولا يتبرَّم من إلحاح الملحين ولا كثرة السائلين..

ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، ولا الجليل عن الحقير..

وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها..

ولو كانت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢/ ٣٢٨.
(٢) تفسير التستري ١/ ٧٦.



وقد جمع سبحانه بين الخلق والأمر، فالخلق أصعب من الأمر، ولما كان هو الخالق وحده، فما أيسر تدبيره لأمر من خلقهم، فيُغني ويُفقِر، ويرفع أقواما ويضع آخرين، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويخفض ويرفع، ويُقيل العثرات، ويُفرِّج الكربات، ويُنفِذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه.



من قبل ومن بعد!

والله عز جل بيده الأمر منذ الأزل إلى الأبد، لذا قال سبحانه:

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾

والآية في سورة الروم أي أن الله قدَّر الغَلَبة أولا للفرس على الروم، ثم الثاني وهو غلبة الروم على الفرس قبل أن يحدث على أرض الواقع، أي من قبل غلبة الروم، فالأمر كله متعلِّقٌ بالروم، أي من قبل غلبهم ومن بعد غلبهم.

قال **البيضاوي** رحمه الله:

«من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين، أي له الأمر حين غلبوا وحين يُغلبون ليس شيء منهما إلا بقضائه»[1].

ويذهب **القشيري** رحمه الله إلى التعميم وليس فقط خاصًا بالصراع بين الفرس والروم،

(١) البيضاوي ٤/ ٢٠١.



فمعنى الآية من قبل كلِّ أمرٍ ومن بعده:

«﴿قَبۡلُ﴾ إذا أُطلِق انتظم الأزل، و ﴿بَعۡدُ﴾ إذا أطلق دلّ على الأبد فالمعنى الأمر الأزليّ لله، والأمر الأبديّ لله لأنّ الرّبّ الأزليّ والسّيّد الأبديّ الله»[1].

والهدف من إعلان توحيد الله بتدبير الأمر أن تُنزِل الأخذ بالأسباب قدره الصحيح الذي لا يتقدَّم عنه ولا يتأخر.

قال **السعدي** رحمه الله: «فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لابد أن يقترن بها القضاء والقدر»[2].

وفيه تأديبٌ عظيم للأمة لكي ينسبوا الفضل لأهله، ولا يعلِّلوا الحوادث بغير أسبابها، ولا ينتحلوا لها عللا توافق أهواءهم كما كان يفعل الدجالون من الكُهَّان والسحرة، فقد تطاول المشركون على المسلمين بعد أن أبهجهم غلبة الفرس على الروم لأنهم عبدة أصنام مثلهم، وادَّعوا أن هذه الغلبة جاءت من نصر الأصنام لعُبّادها، فأبطل الله هذا الظن لدى المشركين، ونزلت الآية عامة ليستفيد منها المؤمنون في كل زمان ومكان.

وتقديم المجرور في قوله ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ليغرس الله في قلب كل مؤمن أن التصرف لله وحده في الحالين، وأن الأمر لا يتعدى أبدا إلى غيره، فقد أثبت الله لهم ذلك بمثال واقعي لمسوه بأيديهم، حين أعلن الله نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة، وحدَّد المنتصر في هذه المعركة.

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ١٠٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٦٣٦- عبد الرحمن السعدي - مؤسسة الرسالة.





دعاء القوة!

ولتدرِك مكامن القوة اليوم، ولمن تكون، وذلك بتدُّبرك لكل كلمة من كلمات هذا الدعاء النبوي ﷺ الشافي لما في الصدور.. الغارس لبذور اليقين وأسباب السرور:

«اللهم ربَّ السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا وربَّ كلِّ شيء، فالقَ الحبِّ والنوى، مُنزِلَ التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شرِّ كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اللهم اقضِ عنا الدَّين، وأغنِنا من الفقر»[1].

ما أعظم كلمات النبي ﷺ!



وهي تبث الروح في نفوس العباد فتحييها، وتبدِّد اليأس في قلوب اليائسين وترويها، وتأخذ بيد العبد ليتجاوز بإيمانه حدود الزمان والمكان، وهو يستشعر أن الدنيا كلها في قبضة الله وحده، وأنَّ حقير الأمور وعظيمها لا يعزُب عن علمه سبحانه، ولا يفلت من سلطانه، فيقوى إيمانه، وترجح كفته، ويتخلَّص من أحزان ألقاها إلى قلبه الشيطان وتطاول الطغيان، وينتصر بإذن الله.

---

(١) تفسير التستري ١/ ٧٦.



وَمَن يتوكل على الله فهو حَسْبُه



جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، لكنه جعل جزاء التوكل عليه كفايته لعبده، فقال:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾

ولم يقل نؤتِه كذا وكذا من الأجر، بل جعل نفسه سبحانه كافي من توكل عليه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له ربُّه من بين ذلك فرجًا ومخرجًا.

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ جاء في موضع تعليل جُملة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله به حين ترون أسباب النصر مفقودة، فإنَّ الله إذا وعد فقد أراد، وإذا أراد أمرا يسَّر له أسبابه، وذلك من حيث لا يحتسب الناس، فتصاريف الله خفية عجيبة، ولذلك كان قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، ومعناه واصلٌ إلى مُرادِه، والبلوغ مجازٌ مشهور في إدراك الغاية.



لكن ما هو التوكل؟!

معنى التوكل من حيث اللغة قاله **الغزالي** رحمه الله:

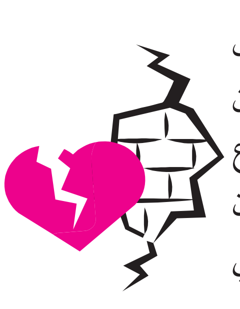
«التوكُّل مشتقٌّ من الوكالة، يُقال: وكَّل أمره إلى فلان أى فوَّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمَّى الموكول إليه وكيلا، ويسمَّى المفوِّض اليه متَّكِلا عليه ومتوكِّلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتَّهمه فيه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزا ولا قصورا،

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده»[1].

أما من حيث المصطلح الإيماني فقاله **القرطبي** رحمه الله:

«**التوكل هو**: الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماضٍ، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي في ما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب، وتحرز من عدو وإعداد»[2].

فالتوكل الحق يتمثَّل في الاعتماد على الحقِّ والتخلي عن الخلق، وقد كان لفضيلة الشيخ **الشعراوي** رحمه الله تشبيه جميل يقرِّب به معنى التوكل:



«وهب أنك سائر في الطريق، وفي جيبك جنيه واحد، وليس عندك غيره وضاع منك؛ هل تحزن؟ نعم سوف تحزن، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفا لضياع الجنيه، أما لو كان رصيدك في البنك ألف جنيه، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع منك، ومن له ربٌّ، وهو يبذل الجَهْد في الأخذ بالأسباب؛ سيجد الحل والفرج من أيِّ كرب مما هو فوق الأسباب».

وأما محله وموقعه في العبد فيشير إليه الإمام **القشيري** رحمه الله:

«اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب، بعدما يحقق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى، فإن تعسَّر شيءٌ فبتقديره، وإن تيسَّر شيء

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٩.
(٢) تفسير القرطبي ٤/ ١٨٤.



فبتيسيره»[١].

والتوكل درجة عالية من درجات الإيمان، وثمرة من ثمراته الزكية الشهية، فقد جعله **سعيد بن جبير** رحمه الله في مرتبة عليا:

«التوكل على الله جماع الإيمان»[٢].

ومن العجب أن الدواب تعرِف إلى من تلجأ عند الحاجة، وبعض الناس لا يهتدي لمن يلتجئ، وقد قالها **حاتم الأصم** رحمه الله في موعظة موجعة وسوط من سياط حِكَمِه يضرب به قلوب الغافلين:

«الحمار يعرف طريق المعلف، والمنافق لا يعرف طريق السماء!»[٣].

وله ثمرات كثيرة وبركات غزيرة، ومنها أنه يورث القلب الشجاعة والقوة، لكن التوكل ليس كلمات تلوكها الألسنة ثم يكذِّبها العمل، بل الفارق شاسع بين الحقيقة والادعاء كما قال **ابن القيم** رحمه الله:

«فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء آخر، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء آخر، فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله، وهو مُصِرٌّ على معصيته مُرتكبٌ لها»[٤].



(١) الرسالة القشيرية ١/ ٢٩٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٧.
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٢٤٧.
(٤) الفوائد ١/ ٨٧.



ووافقه **الفضيل بن عياض** رحمه الله حتى اتهم نفسه وعاتبها في قوله:

«إني لأستحي من الله أن أقول: توكَّلتُ على الله، ولو توكلت عليه حقَّ التوكل ما خفت ولا رجوت غيره»[1].



ما أركان التوكل؟!

الأول: أن تعرف ربك حق المعرفة:

أن توقن بعلم الله وقدرته ورحمته ومحبته، فالمتوكل واثقٌ أن مقادير كل شيء بيد الله، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه يحب من أحبه، وأن رحمته سبقت غضبه، وهذه رحمته بالمسيء، فكيف بالمحسن؟!

وكلما زادت معرفتك بربك زِدْتَ به ثقة وعليه توكلاً، فمن أهمِّ لوازم التوكل معرفة الله، ومَن جهِل ربه لم يصحَّ له التوكل عليه.

الثاني: أن تأخذ بالأسباب:

مرَّ الإمام **الشَّعْبي** رحمه الله بإبل قد فشا فيها الجرب، فقال لصاحبها:

أما تداوي إبلك؟! فقال: إن لنا عجوز نتكل على دعائها.

(١) العقد الفريد ٣/ ١٢٧.



فقال: «اجعل مع دعائها شيئًا من القطران»[1].

فالأخذ بالأسباب فريضة، ودونه لا يبلغ العبد مراده، ولا يوفِّق الله عباده، فاحذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان، فيزيِّن لك التواني في الأخذ بالأسباب، ويورثك الكسل بإحالتك على القَدَر، فإن الله أمرك بالتوكل عليه مع انقطاع الحِيَل، والتسليمِ للقضاء بعد كل الأعذار، والشاعر يقول:

والمرء تلقاه مِضْياعا لفُرْصِته حتّى إذا فات أمرٌ عاتَب القَدَرا

وقد فهمها **الفاروق** ﷺ فلما سأله **أبو عبيدة** ﷺ حين كره **عمر** طاعون الشام، ورجع إلى المدينة: أتفرُّ من قدر الله؟!

فقال **عمر بن الخطاب**: نَعَم إلى قدر الله.

الثالث: أن تستسلم لإرادته:

إذا توكلت عليه، وأخذت بالأسباب، فالآن سلِّم الأمر لربك؛ إن شاء يَسَّر أمرك أو لا، يسمح أو لا يسمح، يجيبك أو لا يجيب، وأنت في كل الأحوال راضٍ عن الله، موقن أنه لا يقدر لك إلا الخير، فترك الأسباب قادح في العقل، والاعتماد عليها قادح في فهمك للشرع، والسلامة والوسط أن تجمع بين الأخذ بالأسباب بجوارحك مع كفر قلبك بها.

قيل **لأبي محمد سهل التستري** رحمه الله:

متى يصح للعبد التوكل؟

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١/ ٣٧ - الراغب الأصفهاني - دار الأرقم بن أبي الأرقم.



فقال:

«إذا علم أن تدبير مولاه له خير من تدبيره لنفسه، فإن نظر مولاه له أحسن من نظره لنفسه، فيترك التفكر فيما كان والتمني لما يكون، فيترك التدبير ولله عاقبة الأمور وهو على كل حال محمود شكور»[1].

وحين تعلم أن إرادة الله غالبة، تدرك أن القلة تنتصر إذا أراد الله لها أن تنتصر كما قال سبحانه:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وأن الكثرة تفشل وتنهزم حين ينزع الله توفيقه وتأييده لها كما قال ربنا عن خير أجناد الأرض بقيادة خير البرية محمد ﷺ:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾

[التوبة:٢٥]



ما تعجز عنه الأسباب مع حُسن التوكل تقوم بإتمامه الأقدار!

وشرط حُسن التوكل: اليأس من الخلق.

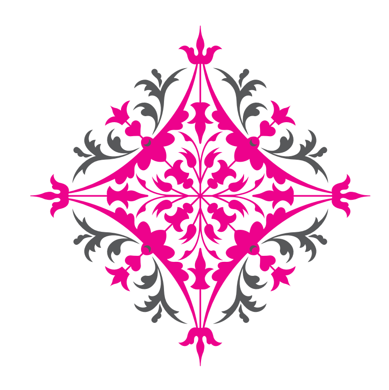
(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ٢/ ٦٢.



قيل **لأبي عبد الله أحمد بن حنبل** رحمه الله:

أيّ شيء صدق التوكل على الله؟ قال:

«أن يتوكل على الله ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيبه بشيء، فإذا كان كذلك كان الله يرزقه وكان متوكلا»[1].



(١) جامع العلوم والحكم/ ٥٧٠.



إِنه مَن يتق ويصبر فإن اللهَ لا يضيع أَجرَ المُحسنين



هذه الآية هي خلاصة القصة وفذلكة[1] سورة **يوسف** ودرسها الأهم، وهي خلاصة المحن العظام التي اجتازها **يوسف** واحدة تلو الأخرى، ومعناها أن العبد لا يصل إلى مطلوبه وينال مراده إلا بالتقوى والصبر.



قال **المراغي** رحمه الله:

«أي إن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو: من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يؤتيه أجره في الآخرة»[2].

إخوتاه..

تلمحوا علو قدر **يعقوب** عليه السلام ببلائه، وعز **يوسف** عليه السلام في صبره وثباته، وليكن حظكم من هذه القصة:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد جمعت هذه الآية العجيبة جميع مطلوبات الله من العبد، وجواز مروره إلى

---

(١) فذلكة: مجمل، حاصل، خلاصة (محيط المحيط)، ويُقال فذلك حسابه: أنهاه وفرغ منه.

(٢) تفسير المراغي ١٣/ ٣٥.



رضوان الله، قال الشَّيخ **أبو محمد عبد القادر الكيلاني** رحمه الله في كتابه (فتوح الغيب):

«لابد لكل مُؤمن من أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقَدَر يرضى به، فأقلُّ حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم هَمُّها قلبه، وليُحدِّث بها نفسه ويأخُذ بها الجوارِح في سائر أحواله»[١].

وقد شرح **ابن تيمية** رحمه الله كلام الشيخ **عبد القادر** واستحسنه بقوله:

«هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف ٩٠].

ولقوله تعالى:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ولقوله تعالى:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور، فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصليين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله»[٢].

---

(١) جامع الرسائل ٢/ ٧٤ – ابن تيمية –دار العطاء – الرياض.
(٢) مجموع الفتاوى ٢/ ٧٥.



التقوى أخت الصبر، وهما شرطا النصر، ففاقد أحد الشرطين محرومٌ من التوفيق الإلهي، وقد يصبر غير التقي فيقع في ما حرَّم الله، ويهدم ما بناه، فحذار أن تعصي ربك فتحرِم نفسك بنفسك، وتخنق فرصتك بيدك..

هذه أوقات حرجة وجولات حاسمة في حياة الأمة، وقد صار ضُحاها بالذنوب مظلما، فعجِّل انبلاج فجرها بالتوبة.

من لم يتب في هذا الأزمة فمتى؟!

ومن لم يجب نداء الله ويتَّقه في هذا الوقت فأنى؟!

ومن لم يتقو بالتقوى فعلى الشدائد والمحن لن يقوى.

لكن..

ما هي التقوى المطلوبة منك اليوم؟!

من أجمع وأجمل تعريفات التقوى أنها اجتناب ما يضُرُّ العبد وهو المعصية والمكروه، وفعل ما هو نافع وهو الواجب والمستحب، فعلى هذا تنقسم إلى فرض ونفل، فالفرض هو فِعل المأمور واجتناب المحظور، والنفل: فعل المندوب واجتناب المكروه، ؛ لأنَّ مُراد التقوى: وقاية العبد من النار، ولا تتم الوقاية بغير هذا.

ولها علامات وشروط. قال **شاه الكرماني** رحمه الله:

«علامة التقوى الورع، وعلامة الورع الوقوف عند الشُّبهات»[1].

(١) الزهد الكبير ١/ ٣١٦.





لا تضرب بيدك في المال قبل أن تتحرى حلاله من حرامه.

ولا تُقدِم على خطوة قبل أن تجول بقلبك في حِلِّها أو حُرمتها.

ولا تندلق الحروف من لسانك إلا إذا علمت أنك تُمليها على مَلَك الحسنات لا السيئات..

ومن علاماتها أن تحافظ عليها في أشد أوقاتك ضعفًا وعند اشتداد بأس عدوك وشيطانك، وهو شرط اشترطه **بكر بن عبد الله المزني** رحمه الله في كل تِقِي حين قال:

«لا يكون العبد تقيًا حتى يكون تقيَّ الطمع، تقيَّ الغضب»[(١)].

ولذا لما اغتاظت **عائشة** رضي الله عنها من خادم لها ثُمَّ رجعت إلى نفسها، فإنها قالت:

«لله دَرُّ التَّقوى! ما تَرَكَتْ لذي غيظٍ شفاء»[(٢)].

ومن علاماتها أن يجعل التقي بينه وبين الحرام سدودًا منيعة كما نقل **ابن المنير** رحمه الله في مناقب شيخه **القبّاري** رحمه الله أنه قال:

«المكروه عقبة بين العبد والحرام، فمن استكثر من المكروه تطرَّق إلى الحرام، والمباح عقبة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرَّق إلى المكروه»[(٣)].

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٤٧.
(٢) أدب الدنيا والدين ١/ ٢٥٢.
(٣) فتح الباري ١/ ١٢٧.



وجانب آخر خفي للتقوى يسلِّط عليه الضوء **ابن رجب** رحمه الله وهو يشرح قوله ﷺ:

«وخالِق الناس بخُلُق حسن»:

«هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما إفراده بالذكر الحاجة إلى بيانه، فإن كثيرا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته إهمالُ حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدا لا يقوى عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصديقين»(١).

وأما الصبر ففي ظل قلة الأعوان أصعب لكن ثوابه أجزل ومقامه أرفع، ويكفيك أيها الصابر شرفا حديث **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه في زمان الصَّبر:

«إن من ورائكم زمان صبرٍ؛ للمتمسِّك فيه أجر خمسين شهيدًا منكم»(٢).

أجر خمسين شهيدًا من صحابة رسول الله ﷺ! فيا له من أجرٍ عظيم يغري الأبرار، ويدفعنا دفعا لنيل شرف الاصطبار!



من ثواب التقوى والصبر

ومن جزاء التقوى والصبر الذي كافأ الله به نبيه **يوسف** عليه السلام تلك الشهرة التي

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٥٤.

(٢) صحيح: رواه الطبراني عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٣٤.



نالها؛ حتى أن سورة في القرآن نزلت باسمه، وصار كل مبتلى يتسلى بها ويستبشر، وهي شهرةٌ يفوز بها كلُّ متَّقٍ صابر، لتكون بعض ثوابه الدنيوي يستأنس به حتى يدرك الأخروي، ومن هؤلاء الأفذاذ الإمام **أحمد** رحمه الله.

قال **عبد الوهاب الوراق** رحمه الله متحدِّثًا عن مشهد من مشاهد علو ذكره وذلك في جنازته:

«ما بلغنا أن جمعًا في الجاهلية ولا الإسلام مثله -يعني: من شهد الجنازة- حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح، فإذا هو نحو من ألف ألف، وحزرنا على القبور نحوا من ستين ألف امرأة، وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب، ينادون من أراد الوضوء»[١].

وهو الذي كان يقول عن من حاربه وآذاه:

«قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز»[٢].

وصدق رحمه الله، فقد علَّق **الحافظ ابن كثير** رحمه الله على قولته هذه، وقارن بين جنازته وجنائز أعدائه فقال:

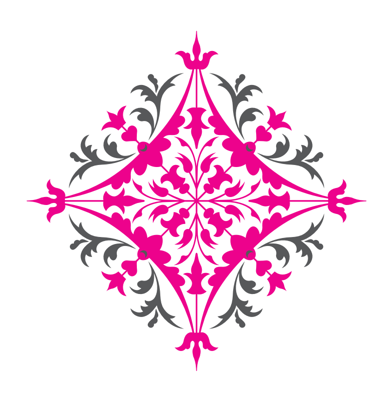
«وقد صدق الله قول **أحمد** في هذا، فإنه كان إمام السنة في زمانه، وعيون مخالفيه **أحمد بن أبي دؤاد** وهو قاضي قضاة الدنيا - لم يحتفل أحد بموته، ولم يلتفت إليه، ولما مات ما شيَّعه إلا قليل من أعوان السلطان.

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤٠.



وكذلك **الحارث بن أسد المحاسبي** رحمه الله، مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس.

وكذلك **بشر بن غياث المريسي** رحمه الله، لم يُصلِّ عليه إلا طائفة يسيرة جدًا، فلله الأمر من قبل ومن بعد»[١].



(١) التاريخ ١٠ / ٣٤٢.



ويَرزقه من حيث لا يحتسب



كان **ابن سيرين** رحمه الله يقول: «أنا لما لا أحتسب أرجى مني لما احتسبت، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾»[1].

أَي من جهة لا تخطر بِبَالِه ولا تتخالج في آماله، والرزق إذا وصل العبد «من حيث لا يحتسب كان أهنأ وأمرأ كما أن الخبر السار إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرَّ، والشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغمَّ وأشرَّ، فالتقوى تصير رزقه من غير محتسبه، فبسقوط المحتسبية عن قلبه يعلم أنه مُتَّق»[2].

فاللهم إنا نسألك من فجأة الخير ما تُدهِش به عقولنا، ونعوذ بك من فجأة الشَّرّ التي توهن قلوبنا.

وهذا الرزق الرباني روحاني وجسماني، ولعل رزق العبد من الصبر واليقين والثبات أعظم من رزقه المالي والبدني، وهو ثمرة مباشرة من مباشرة التقوى، فاشغل نفسك بتحقيق التقوى عن طريق الاحتماء بطاعة الله من عقوبته، وصيانة النَّفس عما تستحق به العقوبة إذا فعلت ما نُهيت عنه أو تركت ما أُمِرت به.

واسمع كيف آمن الفاروق رضي الله عنه بهذه الآية وجعلها أسلوب حياة، فقد قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **لعبد الله بن أرقم**:

اقْسِم بيت المال في كُلِّ شهر، لا بل في كُلِّ جُمعَة، فقال رجُلٌ -وهو **طلحة**-:

يا أمير المؤمنين، لو حبَسْتَ شيئًا بعده عسى أن يأْتيك أمرٌ يُحتاجُ إليه، فلو تركْتَ

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣/ ٢٧٥.
(٢) فيض القدير ١/ ٧١.



عُدَّةً لنائبة إن نابت المسلمين.

فقال **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«كلمةٌ ألقاها الشَّيطان على لسانك، لَقَّنَني اللهُ حُجَّتها، ووقاني فِتنتها، لتكونَنَّ فتنةً لقومٍ بعدي، أعصي الله العام مخافة عام قابل؟!

بل أُعِدُّ لهم ما أعدَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾»[1].

ولعلَّ هذا ما جعل **سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول للمتشكِّكين في الرزق ويخاطب المضطربين:

«فكرك في رزق غد يُكتَب عليكَ خطيئة»[2].

ولو لم يكن من ثمرات التقوى سوى هذه الثمرة لكفى بها والله، والرزق من حيث لا تحتسب بشارة لك بتطهير قلبك من الهموم والأكدار، فالمؤمن التقي يشهد أن الرزق بيد الرزاق، فقلبه مراقبٌ لما يصنع مولاه، وعينه ناظرة لما اختاره له سيده، فهذا يؤتى رزقه صفوا وعلى رزقه طابع الإيمان، ولذا بشَّر **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ المتقين بالكفاية والاستغناء فقال:

«اتق الله فما رأيت تقيًا محتاجًا»[3].

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٢٩١.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٩٨.
(٣) فيض القدير ١/ ٧١.



وَمَن يؤمن باللّٰه يهدِ قلبه



وعدٌ رباني لا يتخلف، ومن أوفى بعهده من الله، فمن آمن بالله هداه، وسكَّن روحه لما أصابه به وابتلاه.

وفي الآية ستة أقوال:

«**أحدها**: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، رواه **علي بن أبي طلحة عن ابن عباس**. وقال **علقمة**: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من قبل الله تعالى، فيُسلِّم، ويرضى.

والثاني: يهْدِ قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، قاله **مقاتل**.

والثالث: أنه إذا ابتُلِي صبر، وإذا أُنعِم عليه شكر، وإذا ظُلِم غفر، قاله **ابن السائب وابن قتيبة**.

والرابع: يَهْدِ قلبه، أي: يجعله مهتديا، قاله **الزجاج**.

والخامس: يَهْدِ وليَّه بالصبر والرضى، قاله **أبو بكر الورَّاق**.

والسادس: يَهدِ قلبه لاتباع السنة إِذا صحَّ إيمانه، قاله **أبو عثمان الحيري**»[١].

أخي المصاب..

كل متع الدنيا ولذائذها تُنسى فور عبورها، وكذلك الأحزان والآلام، لن تذكر منها شيئًا بعد مُضِيِّها، والرضا والتسليم سهلٌ قريب المنال لمن تأمَّل هذا المعنى، وهو ما نبَّهك له **أسامة بن مُنقِذ** فقال:

كلُّ مستقبلٍ من الهَمِّ — يُنسَى إِذا مضى

(١) زاد المسير ٤/ ٢٩٣.

والذي ساءَ من زمـا	نِكَ سهلٌ مـع الرَّضـا
وأخـو الحـزمِ من إذا	أعضـلَ الأمرُ فَوَّضـا

فالحازم هو فوَّض الأمر لربه، ورأى أنَّ اختيار الله له أفضل من اختياره لنفسه، فأراح واستراح، ولذا ترادفت الأقوال حول معنى الرضا، فمن قائل:

هو ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

ومن قائل:

هو استقبال الأحكام بالفرح.

وثالث يقرِّر:

هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وللراضي عـلامة فارقة يميِّـز بها وصـوله لهذا المقام، فقد قيل **لعبد الواحد بن زيد** رحمه الله: متى يكون العبد راضيًا عن ربه؟

قال:

«إذا سرَّته المصيبة كما تسُرُّه النِّعمة»[1].

وهو رؤية المبتلي في البلاء، والمقدِّر في الأقدار، وهذا من أعظم ما يخفِّف ألم الابتلاء الذي قد يكون أصل الشفاء وأصل العطاء كما يقول **ابن عطاء** رحمه الله:

«ليخفِّف عنك ألم البلايا، علمك بأنه سبحانه وتعالى المبتلي لك، فالذي واجهتك

(١) المستطرف ١/ ٧٩.



منه الأقدار هو الذي له فيك حسن الاختيار»[1].

وهو إيمان بالقَدَر الذي مضى، والقضاء الذي جرى كما قال ربنا:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

قال **الزمخشري** رحمه الله:

«أنكم إذا علمتم أنَّ كل شيء مقدر مكتوب عند الله قلَّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي، لأنَّ من علم أن ما عنده معقود لا محالة؛ لم يتفاقم جزعه عند فقده، لأنه وطَّن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنَّ بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال: لم يعظم فرحه عند نيله»[2].

نعم..

في الإسلام يموت ابن العبد فيقول: آمنتُ بالله، وترحل زوجته فيسترجع: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويتهدَّم بيته فيردِّد: قدَّر الله وما شاء فعل، وتبور تجارته فيسِّلم ويرضى ويبدأ من جديد، وذلك لأن الله هدى قلبه، وزاده إيمانًا، فهو يحمل بين جوانحه عقيدة أقوى من الحديد، وإرادة تصهر الفولاذ.

وهي درجة لا يحوزها إلا من أيقن بربه، فنظر إلى لطائف الغيب من خلال

(١) التنوير في إسقاط التدبير ص ٣١- ابن عطاء الله.
(٢) تفسير الزمخشري ٤/ ٤٧٩.



ستر رقيق.

ولذا رأى عليُّ بن الحسين في الرضا درجة إيمانية رفيعة شامخة قائلاً:

«الرِّضا بمكروه القضاء أرفعُ درجات اليقين»[1].

وهذا والله رزقٌ خفي، وثروة لا تُقدَّر بمال، وقليلٌ منا من يمتلك من البصيرة ما يكشِف به هذه الكنوز، ويقدِّر قيمة هذه النِّعم الخفية.

ولعلَّ من هؤلاء رجلٌ من البُسَطاء الذين لا نعرِف أسماءهم وهو واحدٌ من الأعراب أنشدنا مفتخِرًا، فتردَّد الصدى في أرجاء القلوب الراضية:

للناس مالٌ ولي مالان ما لهما	**إذا تحارس أهل المال حُرّاس**
مالي الرضا بالذي أصبحت أملكه	**ومالي اليأس ممّا يملك الناس**

ولذا لا يفارق قلب الراضي الرِّضا ولو في قعر السجن، فهو يعلم أنه قد التحق بجامعة يوسف عليه السلام وقاطرة المصلحين التي سرعان ما ستنتهي به إلى الحُكم، وقد قال البحتريُّ يسلي محمد بن يوسف عن سجنه:

وما هذه الأيّام إلا منازل	**فمن منزل رحب ومن منزل ضنك**
وقد هذَّبتك الحادثات وإنما	**صفا الذهب الإبريز قبلك بالسَّبْك**
أما في رسول الله يوسف أسوة	**لمثلك محبوسا على الظُّلم والإفك**
أقام جميل الصبر في السجن برهة	**فآل به الصَّبْر الجميل إلى الملك**

(١) عيون الأخبار ٢/ ٤٠٣.





الرضا عملٌ قلبي راجح!

في الحديث:

«ولو أنفقتَ مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، ولو مِتَّ على غير هذا لدخلتَ النار»(١).



وفي هذا إشارة إلى أن أعمال القلوب أهم وأثقل من أعمال الجوارح، فإنفاق آلاف الأثقال ذهبًا في سبيل الله مع مشقته لا يساوي عند الله ما يحويه قلبٌ من كنز اليقين، وما أرقَّها من لمسة حانية تضمِّد جراحك، وما أبردها من نَسْمة لطيفة تبرِّد حرارة مصابك حين يقول لك نبيك ﷺ:

«واعلم أن ما أصابك لم يكُن لِيُخطِئك».

لتكون تسلية لك عند حصول المكروه لتصبر، وأما قوله ﷺ:

«وما أخطأَك لم يَكُن لِيُصيبك».

فهي تسليةٌ لك عند فوات المحبوب لترضى.

(١) صحيح: رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه وابن حبان عن أبي بن كعب وزيد بن ثابت وحذيفة وابن مسعود كما في شرح الطحاوية رقم: ٦٢٩.





يحمد الله على الْمُصِيبَة!

قال **شُرَيْح** القاضي رحمه الله مفشيًا سر حصوله على كنز الرضا، ومُهدِيًا لنا ثمرة تأملاته وكنز إيمانياته:

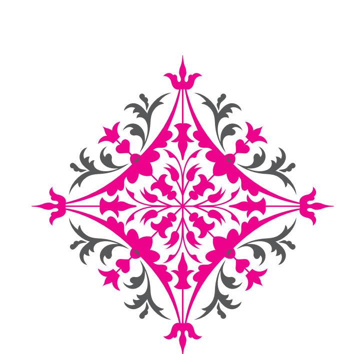
«إنِّي لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عز وجل عليها أربع مَرَّات:

أحمده إذْ لم تكن أعظم مِمَّا هِيَ،

وأحمده إِذْ رَزَقَنِي الصَّبْرَ عَلَيْهَا،

وأحمده إِذْ وفقني للاسترجاع لما أَرْجُو فِيهِ من الثَّوَاب،

وأحمده إِذْ لم يَجْعَلهَا فِي ديني»[1].



(١) تسلية أهل المصائب ١/ ١٧.



قُل لن يُصيبنا إلا ما كَتبَ اللهُ لنا



أي قُلْ أيها الرسول لأولئك المنافقين الشامتين في مصاب المؤمنين أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله ﴿لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ من خير أو شر، فالقلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، رُفِعتْ الأقلام وجفَّت الصُّحف، فلا يقدر أحدٌ أن يدفع عن نفسه مكروها أو يجلب لنفسه نفعا ما لم يُقدَّر له، وهذا هو الاحتجاجُ بالقَدَر في موضعه الصحيح؛ لأنَّ القدر يُحتجُّ به في المصائب، ولا يُحتجُّ به في الذنوب والمعائب.

وعندما نتأمل قول الله: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾

أي أن المسألة في صالحنا وبما فيه نفعنا وخيرنا، ولم يقل الحق: كتب الله علينا، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها عقوبة لا مثوبة.

وأي كدَر يصيب المؤمن، فعليه أن يسائل فيه نفسه:

أعدلاً كان أم ظلمًا؟

فإن كانت عدلاً فقد جبرت الذنب ورحمتك من عقوبته الأخروية، وإن كانت ظلمًا فسوف يقتص الله له ممن ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن رابح في كلتا الحالتين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

قال **القشيري** رحمه الله:

«المؤمن لا تلحقه شماتة عدوِّه لأنه ليس يرى إلا مراد وليِّه، فهو يتحقق أنَّ ما يناله مراد مولاه فيسقط عن قلبه ما يهواه، ويستقبله بروح رضاه، فيَعْذُب عنده ما كان يصعب من بلواه، وفي معناه أنشدوا:

إن كان سرَّكمُ ما قال حاسدنا ... فما لجُرحٍ -إذا أرضاكمُ- ألمُ



ويقول رحمه الله:

شهود جريان التقدير يخفِّف على العبد تعبَ كلِّ عسيرٍ»[1].

وقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾:

إعلامٌ للعبد أن الله سبحانه يفعل ما يشاء في مُلكِه، ويتصرَّف فيه بحسب ما يرى.

والمولى كذلك هو من يتولى أمورنا، ويصرِّف الأمور على وفق ما فيه مصلحتنا الدنيوية والأخروية، ولا يرضى أن يلحق بمن والاه الخزي والضرر، بل يدفع عنه ويحارب:

«من عادى لي وليًا فقد آذَنتُه بالحرب».

فكن على ثقة أن ما كُتِب لك هو الخير العاجل أو الآجل.. الظاهر أو الخفي، فكيف يسوؤك بعدها ما يبتليك الله به من المصائب والأقدار؟!

ولذا يكون حال هذا العبد هو سكون السِّر عند حلول الأمر، ويتساوى عنده الحُلو والمُر، والنعمة والمحنة.

وحين يفرح عدوك بما ينالك من أذى، ثم يفاجأ بعدم اكتراثك بالمصيبة وانتفاء حزنك يكون ذلك بمثابة ضربة قاصمة له، فإذا عَلِم أنك لا تحزن لما أصابك زال فرحه وشماتته، وانقلب إلى حسرات وتقلب على جمرات الغيظ.

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ٣٣، ٣٤.



وفي الآية تعليمٌ للأمة بأسرها أن تتخلق بهذا الخُلُق، وهو أن لا يحزنوا لما أصابهم في سبيل الله، وأن يرضوا بما قدَّر الله لهم، ويرجوا رضا ربهم لأنهم واثقون بأنه لا يريد بهم إلا الخير، وهذا ما يورث المؤمنين قمة السكينة والصحة النفسية، ولعلَّ أبلغ ما يوصف به هؤلاء هو ما وعدهم ربهم به:

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]

قال **أبو منصور الثعالبي** رحمه الله في تعليقه على بلاغة هذه الآية مسلِّطًا الضوء على أرباح المؤمنين:

«فقد أدرج فيه ذكر إقبال كل محبوب عليهم، وزوال كل مكروه عنهم.

ولا شيء أضر بالإنسان من الحزن والخوف، لأن «الحزن» يتولّد من مكروه ماض أو حاضر، و «الخوف» يتولد من مكروه مستقبل، فإذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بعيشه، بل يتبرم بحياته.

والحزن والخوف أقوى أسباب مرض النفس، كما أن السرور والأمن أقوى أسباب صحتها!

فالحزن والخوف موضوعان بإزاء كل محنة وبليَّة!

والسرور والأمن موضوعان بإزاء كل صحة ونعمة هنيَّة!»[١].

(١) الإعجاز والإيجاز ١/ ١٥، ١٦ – أبو منصور الثعالبي – مكتبة القرآن.



وفي الآية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من البلاغة ما فيها..

فلا خوفٌ عليهم أي ليس عليهم خطرٌ فيما يستقبلهم من المخاوف والأهوال.

والقضية ليست في أن تخاف أو لا تخاف؛ المهم أن لا يكون عليك خطر في ما أنت مُقبِل عليه، فقد تكون خائفًا من شيء لا خطر فيه، وقد تكون غير خائف من أمر تكتنفه المخاطر كالطفل لا يخاف الكهرباء مثلاً لجهله أنها تؤدي لقتله، وكالمجترئ على ربه الذي لا يخاف الآخرة مع ما ينتظره فيها من العذاب الشديد.

وفى تعدية الخوف بحرف الجرِّ ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أن الخوف إنما يكون من المستقبل، ويكون المعنى: لا خوف مقبلٌ عليهم.

ويقال: صفة الولي أن لا يكون له خوف، لأن الخوف ترقب مكروه يحل في المستقبل أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف، والولي ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئا.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

نفى عنهم الحزن وأثبته لغيرهم، وهي فائدة التقديم، فإنك إن قلت: ما أنا فعلت هذا، فكأنك تشير بذلك إلى أنَّ غيرك فعله، فالذي يحزن هنا هو غيرهم من الكفار والفُسّاق وضعاف الإيمان.

وهنا رسالة:

إن انفراج أي زمة ليس في انقضائها، بل في انقضاء الألم الذي تخلِّفه في نفوس أبنائها، فقد تستمر البلوى مع ارتفاع الهم والحزن، وعندها لا تعود تؤثِّر في قلب



العبد.

ومن الناس من قويت بصائر قلوبهم بحيث لا تنال منهم المصائب والبلايا، فهؤلاء هم أهل السعادة لأنها تنبع من قلوبهم، وإن أحاطت بهم من الخارج كل أسباب الشقاء.



المانع المُعطي!

ويزيد في طمأنينتك أن توقن أن أمرك بيد الله وحده، ونفعك وضرك لا يتجاوز إرادته، وهو سبحانه إذا أراد شيئًا فلا يُعجِزه شيء، ولو اجتمعت الدنيا بأسرها على أن تمنع عنك عطاءه لك فهيهات، ولو اجتمعوا على أن يمسوا شعرة منك دون إذنه فمحال، ولذا صار تذكيرك عقب كل صلاة بهذا المعنى سُنَّة نبوية وذِكرًا ثابتًا تحافظ عليه خمس مرات في اليوم والليلة، وإليك الحديث:

كتب **معاوية** إلى **المغيرة بن شعبة**:

أيَّ شيء كان رسول الله ﷺ يقول إذا سلَّم من الصلاة؟!

فأملاها **المغيرة** عليه، وكتب إلى **معاوية**: كان رسول الله ﷺ يقول:

«لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدُّ منك الجَدُّ»[1].

(١) صحيح البخاري رقم ٨٤٤، وأخرجه مسلم في باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته رقم: ٥٩٣.



ذبح الخوف بسكين الوحي!

إن الطمأنينة والشجاعة والإقدام، وتطليق الخوف، وذبح المطامع، كلها منازل محتكرة على من وثق في وعد ربه، وآمن بسُنَنِه وحِكَمَه، ورضي بقضائه وقدَره، وتخلَّص من مرض الخوف الذي إذا استشرى أفقد العبد إيمانه، وأهلك دينه، وقد رأينا اليوم في من حولنا من علماء السلاطين مَن باعوا دينهم بدنيا غيرهم، وهدموا دين الناس بزلاتهم، وذلك حين مهَّدوا للطغاة الطريق إلى الحكم بالحديد والنار بفتاوى العار.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «وأما الآن فقد قيَّدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم، فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا.

ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه.

ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟!»[1].

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٧.



وعَسى أن تَكرَهوا شيئاً

وهُوَ خيرٌ لكُم



قال **إسحاق العابد** رحمه الله:

«رُبما امتحن الله العبد بمحنة يُخلِّصُه بها من الهلكة، فتكون تلك المحنة أجلَّ نعمة»[1].



وما تكرهه قد يحوي في باطنه الخير لأنه منبع من منابع الأجر ومستودع للثواب، وبهذا كتب مُحَمَّد بن الحنفية إلى **عبد الله بن عبَّاس** رضي الله عنه:

«ولو لم تُؤجر إِلَّا في ما تحب لقلَّ الْأجر»[2].

وعسى عند العامة هي توهُّم وشك، لكنها عنـــد الله تبارك وتعالى يقين وحق، ولهذا قال الشاعر:

قد يُنعِمِ الله بالبلـوى وإن عظُمت ... ويبتلي الله بعـض القـوم بالنِّعم

وهذه الخيرية هي خيرية دنيوية كذلك، فقد تكره المصائب الواقعة والبلايا الحادثة، لكن رُبَّ أمرٍ تكرهه وفيه نجاتك، ورُبَّ أمرٍ تحبه وفيه ضررك، وهذا مُشاهَد في حياتك، فتجاربك الشخصية أقوى من أي رأي.

خـذ ما تـراهُ، ودع شيئـاً سمعتَ به ... في طلعةِ البدرِ ما يغنيـكَ عن زحل

ولذا أنشد **أبو سعيد الضرير**:

رُبَّ أمـر تتقيـه جرَّ أمرا ترتضيه ... خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

---

(١) الفرج بعد الشدة ١/ ١٦١.
(٢) نثر الدر في المحاضرات ١/ ٢٨٢ – منصور بن الحسين الرازي – ط دار الكتب العلمية.



وهذا الخير لا يراه الكثيرون لاحتجابهم بهوى النفس للعاجل وحبهم للظاهر، وأما صاحب البصيرة فلذة الإيمان الغامرة تجعله يحتقِر الشدة العابرة حين يقيسها إلى الخير الدائم واللذات الأبدية، ومن عرف أن فعل الحبيب به حبيب، وأن من ابتلاه هو طبيب رحيم يستخرج بالوقائع النازلة أدواءه، فهذا يمتلئ قلبه سكينة وأمنًا.

لعلَّ عُتْبَكَ محمودٌ عواقبُهُ وربما صحَّتِ الأجسادُ بالعللِ

فرُبَّ محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مسرورٍ بنِعمة هي داؤه، ومرحوم من داءٍ هو شفاؤه.

كم فرحةٍ مطوية لك بين أثناء النوائب
ومسرَّةٍ قد أقبلت من حيث تنتظر المصائب

تأخر صاحب لي عن حافلة، فرجع إلى بيته متحسِّرا، وفي المساء جاء خبر حادث مات فيه كل من ركب هذه الحافلة!

وقد يأسف المرء من فوت ما لعَلَّ السلامة من فوته

ولذا أوصاك **وداعة السهمي** بالصبر على البلايا وعدم استعجال الرخاء مبشِّرا لك بحسن العاقبة قائلاً:

«اصبر على الشَّر إن قدحك، فرُبَّما أجلى عمَّا يُفرِحك، وتحت الرَّغوة اللَّبن الصَّرِيح»[1].

---

(١) الرخاء بعد الشدة ١/ ١٥٨.



أخي المصاب..

خفي عن موسى عليه السلام حكمة أفعال الخِضر، وكذلك يخفى على العوام ما يفعله الملوك، ولذلك خاطب **المتنبي سيف الدولة** قائلاً:

يـدقُّ على الأفكار ما أنت فاعلٌ فيترك ما يخفي ويُؤخَذ ما بدا

فالمتنبي يقول: «دقَّ على الأفكار حقائق سياستك، وتقصر عن سعة إحاطتك، فيأخذ الناس ظاهر ذلك مرتضين بك، ويُعرضون عما خفي عنهم منه مسلِّمين لك»[1].

وهذا قول بشر في بشر، فما ظنك برب البشر؟! وهو العليم الرحيم اللطيف الخبير؟!

لذا كان عبادة العقل التسليم، وعبادة القلب الرضا.

أنشد **أبو سعيد الضرير**:

رُبَّ أمــرٍ تتَّقيــه جَرَّ أمـرا ترتضيه
خَفِيَ المحبوب مِنْه وبــدا المكروه فيـه



فالضربة التي لا تميتك تقوّي ظهرك، والمحنة التي أعيت تنقي صفوف المؤمنين من أصحاب المصالح والمنتفعين، والفشل تهيئة لازمة وتدريبٌ ضروري على النجاح المنتظر، فارجُ الخير في موضع الشَّرّ، فرُبَّ حياة سبَّبها طلب الموت، وأكثر ما يأتي الأمن من ناحية الخوف.

(١) شَرح شِعْر المُتَنبي ٢/ ٢٠٢ – ط أبو القاسم ابن الإفلِيلي – مؤسسة الرسالة ببيروت.



وخذ مثالاً لهذا الخير في باطن الشر، وذلك في واقعة الإفك التي اتُّهِمت فيها أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ **عائشة** بأبشع تهمة يمكُن أن تنال امرأة، فأي خير في هذا؟!

قال **المراغي** رحمه الله:

«﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لا تظنوا أن فيه فتنة وشرًا، بل هو خيرٌ لكم، لاكتسابكم به الثواب العظيم، لأنه كان بلاءًا مبينًا ومحنة ظاهرة، وإظهار كرامتكم على الله بإنزال قرآن يُتلى مدى الدهر في براءتكم وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن بكم خيرًا، إلى نحو ذلك من الفوائد الدينية والآداب التي لا تخفى على من تأمَّلها»[1].



عطاء ابن عطاء!

ولنا هنا جولة في حكم **ابن عطاء** تشرح لنا هذا المعنى. يقول **ابن عطاء** رحمه الله:

«ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.. متى فتح لك باب الفهم في المنع؛ عاد المنع عين العطاء».

ويقول:

«ربما أعطاك فأشهدك بِرَّه، وربما مَنَعك فأشْهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرِّفٌ إليك، ومقبِلٌ بجميل فضله عليك».

(١) تفسير المراغي ١٨/ ٨٣.

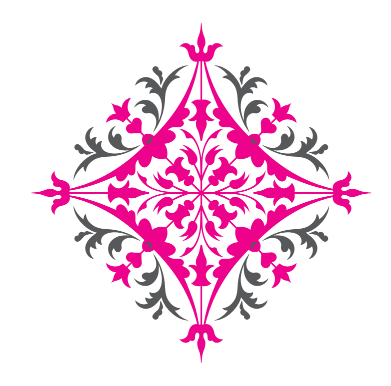


ويقول:

«البشر يمنعونك بخلاً أو أنانية أو جهلاً بما يصلحك ظنًا أن المنع في صالحك وهو غير ذلك، ولكن الله لا يمنع إلا ليعطي، فالظاهر حرمان والباطن منٌّ وإحسان».

ويقول مشيرًا إلى أن الجاهل هو من أراد أن يحدث غير ما أراده الله:

«ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله».





وما النصر إلا من عند الله



قضى الله أن النصر ليس بقلة العدد ولا كثرته، ولكنه من لدن عزيز حكيم..

وانظر في الآية التي قبلها:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾.

أي وما وعدكم الله في بدر من إمداده إياكم بالملائكة إلا بشرى يبشِّركم بها ولتطمئن قلوبكم به، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدوكم وعتاده، وقلة عددكم ومئونتكم

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (١٢٦)

يعني: وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله، لا من قِبَل المدد الذي يأتيكم من الملائكة، فعلى الله فتوكلوا، وبه استعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإنَّ نصركم من عند الله وحده لا من عند غيره.

لكن..
ما مراد الآية؟

مراد الله أن لا يركن المؤمنون إلى الأسباب، وأعلمهم أن الملائكة وإن حضروا وقاتلوا، ليستعينوا به ويتوكلوا عليه، والإمداد بالملائكة مجرد بُشرى، وطمأنة لقلوبهم، لما هو مغروس في طبائع البشر من الضعف، فأما حقيقة النصر فهو من عند الله وحده، وهو تخليصٌ لقلوب العباد من التعلق بغير الله، ولهذا قال **ابن زيد**:

«لو شاء أن ينصركم بغير الملائكة فعَل»[١].

(١) الطبري ٧/ ١٩١.



وهذا علَّمنا النبي ﷺ الاستعانة بالله وحده خاصة عند الشدائد واحتدام القتال حيث.. «**كان إذا غزا قال: اللهم أنت عَضُدي وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل**»[١].

«**عضُدي**» أي معتمدي فلا أعتمد على غيرك، و«**نصيري**» أي معيني ومغيثي وهو عطف تفسيري على «**عضُدي**»، و«**بك أحول**» أي: أصرف كيد العدو وأحتال لدفع مكرهم واستئصالهم، أو أتحرك وأتحول من حال إلى حال، أو أفرِّق بين الحق والباطل من حال بين الشيئين إذا منع أحدهما عن الآخر، «**وبك أصول**» أي: أحمل على العدو حتى أغلبه وأستأصله، ومنه الصولة، وتلحظ تكرار قوله «**بك**» تأكيدًا على توحيد الاستعانة بالله وحده والتبرؤ مما سواه أي بحولك وحدك، وقوتك وحدك، وعونك وحدك، ونصرتك وحدك.

قال **البيضاوي** رحمه الله مبيِّنًا قيمة الأسباب وقدرها الحقيقي في تحقيق الأهداف:

«فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والتأهب، وسائط، لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها، فحكم الأزل جلَّ أن يُضَافَ إلى العِلَلِ»[٢].

إن الله عزيز حكيم: عزيز لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، فالنجاة من البلاء أسهل شيء عليه، ومواد الإمداد مرهونة بين يديه، والدعوات لديه مسموعة، والإجابة غير ممنوعة، لكنه حكيم في تدبيره، ونصرة من نصر، وخذلان من خذل، لا يدخل تدبيره وهن ولا خَلل.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٥٧.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٣/ ٥٢ - البيضاوي - دار إحياء التراث العربي.



وما دام أن النصر من عند الله، فإياكم أن تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم، فلله جنودٌ لا يعلمها إلا هو، ونصركم إذا فُزْتم بمعية ربكم يأتيكم من حيث لا تحتسبون وبأهْون الأسباب، ومن هذه الأسباب:

- أن يُريكم أعداءكم قليلاً، ويُكثِّركم في عيونهم ليفُتَّ ذلك في عَضُدهم ويُرهبهم.
- ومنها أن يحدث العكس، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم، ثم تفجؤهم الحقيقة وتنالهم الهزيمة.
- ومنها أن أن يُلقي الرعب في قلوب الأعداء، فيفرون ويتخبطون.
- ومنها أن يسخِّر من الأسباب الربانية والأحوال ما يساند به عباده وأولياءه كالريح والمطر وجنوده من الإنس والجن.

وأما إذا استعنا بغير الله وركنّا إليه، فقد استجلبنا أسباب الهزيمة وتسببنا في النكاية بنا، وقد كتب **الحسن البصري** إلى **عمر بن عبد العزيز** رحمه الله:

«لا تستعِن بغير الله فيكلك الله إليه»[1].

ولذا قال **ابن القيم** رحمه الله:

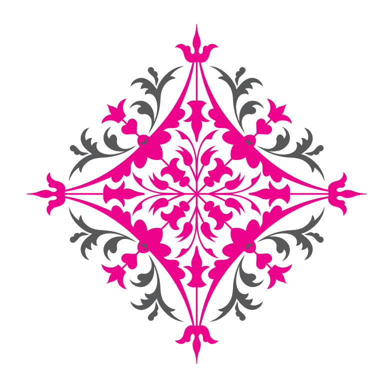
«فأعظم الناس خذلانا من تعلَّق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو مُعَرَّض للزوال والفوات، ومَثَل المتعلِّق بغير الله كمَثَل المستظِل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وأوهن البيوت»[2].

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٨٢.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.



وقال رحمه الله:

«إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به وصل»[1].



(١) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.



قُل لا يستَوي الخبيثُ والطيبُ
ولو أعجَبَكَ كثرة الخبيث



هذه الآية تُعالج نفسية المؤمن وهو يرى كثرة جند الباطل من حوله، ويشعر بغربةٍ في الميدان، وأنه يسبح عكس التيار، وأن التيار يجرف جموع الغافلين في مسار الباطل، فإن لم يكن ففي مسار السكوت عن الباطل، وحينها تهب على قلبك نسائم هذه الآية:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

لتنتشِلك من هذه الأزمة، وتصيغ نفسيتك من جديد صياغة تكفل سكينتك وطمأنينتك، فالآية تقول:

قل أيها الرسول مخاطبًا أمتك مُعلِّما لها:

لا يستوى الرديء والجيد من الأعمال والأموال والأشخاص، فلا يستوى الضار والنافع، ولا الفاسد والصالح، ولا الظالم والمظلوم، ولا الحرام والحلال، فلكل منهما حُكمه ومكانته، وأجره أو وِزره بحسب عمله الذي يجازيه الله به، وهو الذي لا يظلم مثقال ذرة، ويضع كل شيء في موضعه الذي يستحقه، وفي الآية ترغيبٌ في صالح العمل ولو كان شاقًا، وحلال المال وإن كان قليلاً.

فالصدقة من حرام –وإن كانت أمثال الجبال– لا تصعد إلى الله تعالى، ولا توضع في خزائنه، أما الصدقة من حلالٍ –وإن كانت شقَّ تمرة– فهي تقع في كف الرحمن وتربو، حتى أن مثقال حبة من صدقةٍ حلال أرجح عند الله من أمثال الجبال من حرام.

وتحمل الآية معنى آخر، وهو أنَّ القليل من الحلال أكثر بركة ونفعا لصاحبه من كثير الحرام، منزوعِ البركة، عظيمِ الضَّرر دُنيا وآخرة.



والخُبْث يسري كذلك إلى الأشخاص والأفراد، فعبدٌ قريبٌ من الله خيرٌ من ملء الأرض من أقوام يحادون الله ورسوله، وقلةٌ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تدفع العذاب عن كثرة تنتهك محارم الله صباح مساء، ولا تعرف لله حقًا ولا تقيم له أمرًا.

وفقيرٌ لا يجد قوت يومه لا يؤبه له في مقياس الدنيا لكنه عامر القلب بالإيمان، فيزن مئات الرجال من رجال أصفار الميزان بمقياس الآخرة!

يقول **المراغي** رحمه الله مؤكِّدا هذا المعنى:

«فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثيرة من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوي البصيرة والرأي تأتي من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خيرًا إلا بعد التساوي في الصفات الفاضلة»[1].

وخبث الأعمال كذلك واضح، فالظلم والإفساد في الأرض وإشاعة الفاحشة، وإن تستَّر أصحابها بالثياب الفاخرة والقصور المشيدة والمراكب الفارهة والأموال الطائلة، فكل هؤلاء خبَث وركام زائل ووقود نار ولو كانوا هم الأكثرين عددًا ومالاً وجاها.

(١) تفسير المراغي ٧/ ٣٩ - أحمد بن مصطفى المراغي - ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر.



وقوله ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ﴾:

«الواو حالية للعطف على حال محذوفة، والتقدير: لا يستويان في كل حال ولو في هذه الحال، وهذا لاستقصاء الأحوال، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: ما استوى مع الطيب»[1].

والمراد:

أي لا تجعل أيها السامع الكثرة والقلة مقياسا للأفضلية، وإلا فتحت قلبك لكثرةٍ خبيثة من الناس.

وفتحت جوارحك للعمل الخبيث كتبرج النساء والتهاون بمحقِّرات الأعمال.

وفتحت يدك للمال الخبيث كأكل الربا والرشوة.

العبرة إذن بالجودة وليس بالقلة أو الكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والله يحذِّرنا من أن يستحوذ علينا الشيطان، فنغتر بكثرة المال الخبيث، وعلو جند الباطل وكثرته، وتآزر قوى الإفساد، فنستسلم ولا نقاومه، وننجرف مع التيار، وهذه الرسالة لن يستلمها إلا أصحاب العقول الراجحة.

ولذا قال ربنا:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾.

لكن لماذا خص أولي الألباب بالذكر؟!

(١) المجتبى من مشكل إعراب القرآن ص ٢٤٧ – أحمد بن محمد الخراط – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.



قال **المراغي** رحمه الله:

«وخصَّ أولى الألباب بالاعتبار لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التي ترشد إليها مقدماتها بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، أما الأغرار الغافلون فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكّر، فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم ولا بما يسمعون بآذانهم، كما يشاهد ويرى من حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التي جمعت من الحرام، وحال الدول التي ذهب ريحها بخلوها من فضيلتى العلم والخلق وورثها من كانوا أقل منهم رجالاً ومالاً إذ كانوا أفضل منهم أخلاقًا وأعمالاً»[1].

والواقي الوحيد في هذا المضمار هو التقوى، وبها وحدها الفلاح والفوز بخيري الدنيا والآخرة، وتقوى الله تفرض عليك اجتناب الخبيث وإن كثر، والحِرْص على الطيِّب وإن قلَّ ونَدُر، وقد علَّمك نبيك ﷺ قيمة أن تكون في القلة المميزة والصفوة الرائعة، وكلما كان المعدن نادرا كلما غلا ثمنه وعزَّ قدره، والناس تضرب أكباد الإبل وتتغرب في سبيل تحصيل الثروة، وفي الحديث:

«طوبى للغـــرباء، أناسٌ صالحون في أناس ســـوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم»[2].

وفي رواية فيها ضعف:

«من يُبغِضُهم أكثر ممن يُحِبُّهم».

وما ضَرَّ هذه القلة أن الكثرة تعصيهم أو تُبغِضهم إذا كانوا بالصلاح مستمسكين،

(١) تفسير المراغي ٧/ ٣٩.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٦٨.



ولربهم طائعين، وبالاستقامة قائمين.

ولذا سمع **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه رجلاً يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين» فقال:

«يا عبد الله وما الأقلون؟».

قال: سمعتُ الله يقول:

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وذكر آيات أُخَر، فقال **عمر**:

«كل أحدٍ أفقهُ من عمر»[١].

لقد لمح **أبو الطيب المتنبي** أنه كلما علت مكانتك وارتقيت كلما انتميت لدائرة أضيق، فقال:

وحيدٌ من الخلانِ في كلِّ بلدةٍ   إذا عظمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

ومن ثم حذَّر **الثوري** العلماء من كثرة الأتباع، وله في ذلك رأيًا بناه على قلة المهتدين وكثرة المخالفين، فقال رحمه الله:

«إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مُخلِّط لأنه لو نطق بالحق لأبغضوه»[٢].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ١/ ٢٩٧.
(٢) فيض القدير ٤/ ٢٧٤.





فهمٌ خاطئ للغُربة

والكثير من الناس لا يفهمون من أحاديث الغربة إلا أن الإسلام سيعود غريبا، وأن هذا يعذرُهم في القعود وترك العمل، ولا يفقهون أنها فرصة ثمينة لنيل أعلى الدرجات التي لا تتوافر في غيره من الأزمنة، فلا يطمعون في نيل شرف الغُربة.. وأن يكونوا من الذين يأمرون بالقسط من الناس، فيعصيهم من يعصيهم، ويطيعهم من يطيعهم.

ولأن الغربة تميز واصطفاء وقليلٌ من الناس من يقوم بحقها، ولذا كانوا هم الموعودين بطوبى، وطوبى في الدنيا هي الخير الكثير الطيب المبارك مصحوبا بالتوفيق والتسديد والتصبير والتثبيت، وفي الآخرة هي شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

وغريبٌ أن لا ينال هذا الزمان منا إلا الذم والعيب، حتى صارت هذه الكلمة عذرا كبيرا لتقبل وتسويغ كل الأخطاء والمخالفات، والقعود عن أداء الواجبات.

إن ذم الزمان فيه نوع من التنصل من المسئولية، وكثيرون يرون أن لا مسئولية عليهم، ولا عبء على كواهلهم، وأنَّ الأوان أوان اعتزال الناس وهجرهم لأن الزمان فسد حتى قال قائلهم:

هذا الزمــان الذي كنا نُحــاذِره	**في قولِ كعب وفي قول ابن مسعود**
دهرٌ به الحــق مردودٌ بأجمعــه	**والظلم والبغي فيه غيرُ مَــردود**



إن دام هذا ولم يحدث لــــه غيـر   لم يبك ميت ولم يفـرح بمولـــد

إن ذم الزمان وعيبه كذلك يحمل بين طياته معنى تزكية النفس ومدحها، وكأنك تُخرِج نفسك من دائرة الاتهام التي طالت الجميع، وتخص ذاتك بفضيلةٍ ليست لغيرك، وهو منبت من منابت الكِبر والغرور.

وحين تلجأ إلى اتهام الناس وترى العيب فيهم لا فيك، فإنك تهوِّن بذلك من شأن أمة **محمد** ﷺ، وتُلقي بنفسك نحو التهلكة، ففي صحيح **مسلم** أن النبي ﷺ قال:

«إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم»[1].

قال **أبو إسحاق**: لا أدري، أهلكَهم بالنصب، أو أهلكُهم بالرفع، والرفع أشهر، ومعناه أشدهم هلاكًا، وذلك بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما استدرجه ذلك إلى الإعجاب بنفسه ورؤية أنه خير منهم، وأما رواية الفتح فمعناها أنه الذي تسبب في هلاكهم؛ لأنه قنَّطهم من رحمة الله تعالى، وجرَّهم إلى القعود وترك العمل.

وعيب الزمان تبريرٌ للفشل، فكلما عانى أحدهم عقبة في طريق الدعوة أو العلم أو الإصلاح، أو تعثَّر قليلاً أو فشل بعض الفشل أو كله، كان أسرع ما يمُرُّ بخاطره هو اتهام الظروف والأحوال وعيب الزمان، وهو لونٌ من الفرار في مواجهة النفس ومحاسبتها، أو تهرُّب من المراجعة والتصحيح، فتتبدَّد فرص الإصلاح والاستدراك في متاهات التبرير وشماعة الدفاع بدلاً من التحليل العلمي الموضوعي الكفيل بعدم تكرار الخطأ.

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم ٧١٢.



فأما الزَبدُ فيذهبُ جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكُث في الأرض



هذا مَثَل من الأمثال القرآنية التي بلغت ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث استكمال الوضوح وتوصيل المعنى المراد وتقريبه للأفهام، ولذا قال **ابن القيم** في إعلام الموقعين في قيمة هذا المثل الرائع:

«ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق»[1].

فهما في الحقيقة مثلان اثنان نعرض لهما بالتفصيل لنفهم مراد الله منهما:

المثل الأول مائي:

قال الله تعالى فيه:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾.

أنزل الله من السماء ماء فسال في الأودية، والوادي ينحصر بين جبلين، فإذا نزلت الأمطار انحدرت إلى أسفل، وجرت في هذه الأودية، والأودية هي محل الخِصب؛ لأن الطمي يتجمَّع فيها من الجبال مع ماء المطر، فيترسَّب تربةً خِصْبة تُنبِت أطيب الزروع.

ينزل المطر ليغسل التربة من الخبث والعناصر القذرة التي تطفو على السطح؛ وهي تطفو لأنها خفيفة الوزن، غير ثقيلة القدر، فهي غثاء، والغثاء من طبيعته أنه يعلو، لكن هل يظل كذلك؟ يُطمئِنُنا الحق أنه يحمي الحق ويُعليه قائلاً:

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١١٨ – ابن قيم الجوزية – ط دار الكتب العلمية – بيروت.





وكما يضمحل هذا الزبد فيصير جفاء لا ينتفع به ولا تُرجى بركته، فكذلك يضمحل الباطل ويتبدَّد، والجفاء في اللغة هو ما رمى به الوادي إلى جنباته فيُقال: أجْفَأَت القِدْر بزبدها إذا ألقت زبدها عنها، فلا تظن أن الزبد له فائدة، أو أنَّ ارتفاعه علو في القدر، بل هو صعود مؤقت إلى زوال، وإن لم تذهب آثار الزبد بحركة الماء المستمرة، فإنها ستتكسر حتما على حافتي المجرى أو صخور الشاطئ حين تصل إليه، وكذلك هي فورة الباطل حين يعلو في لحظة طارئة من غفلة أهل الحق.

وهذا تطهيرٌ لازم للحق عبر حركة دائمة دائبة، ولذا قال الله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾، أي أن الحق يبقى صافيًا ثابتًا، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة، وهو مثلٌ واقعي نراه في حياتنا، فالأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه كل يوم، لكنها لا تنتفع أبدا بالزبد!

وزبد المياه في هذا المثل يقابله على أرض الواقع: الزَّبد في القلب والزَّبد في الأرض..

فأما الزبد الذي في القلب فهو الشبهات والشهوات فيه، وهما مضمحلان تحت تأثير الوحي في القلب إذا استدعاه العبد والتجأ إليه، فالوحي باقٍ يمكث في أرض القلب لينتفع به المؤمن، ويثمر عملا صالحا كما ينبت الماء في الأرض عشبا وزرعا ونخلا وعنبا.

وأما الزبد الذي في الأرض فهو الباطل الذي يحارب الحق ويتصارع معه، وللباطل



جولة، وإن علا على الحق يوما، لكن الحق له العاقبة، ولأهله السيادة والظفر.

والمثل الثاني مَثَل ناري:

وذكر الله مثلا آخر وهو المثل الناري في قوله:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تُخرِجُ ما فيها من خَبَث، وتفصله عن جوهر المعدن الذي يُنتَفع به، ومن رأى الحدّاد ينفخ في كيره على قطع الحديد يرى جيدا كيف أن الخبث والمواد الغريبة تنفصل عنه أثناء الصهر، وعندما يُخرِج المعدن خبثه يصير صُلبًا قويًا، فالنار المُحرقة ليست شرًا بل فيها فائدة لا تتم إلا بها، وهي تنقية المعدن من شوائبه، فإذا أردت أن تصنع من الحديد درعًا قوية، فلابد لك من صهره بالنار ليزداد صلابة، ومِثلُه الذهب والفضة لا يكتسبان قيمتهما ولا يعلو ثمنهما إلا بنار الكير وحرارة الصَّهر والسبك!

والنار في هذا المثل يقابلها في الواقع وعلى الأرض: نار المجاهدة في القلب، ونار محنة المؤمن وابتلائه في الأرض كما قال الشَّيخ **محمَّد بن عبد القادر** رحمه الله:

يا بنيَّ! المصيبة ما جاءت لتُهلكَ، وإنَّما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، فالمصيبة كير العبد، فإمّا أن يخرج ذهبا أو خَبَثا كما قيل:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا ... فأَبْدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديد[1]

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٣/ ٣٠٥.



لكن لماذا هذا التمثيل الحسي؟

إن الحق كالماء، والحق كالنار، والماء يحمل الزبد الرابي بعيدًا عن مسام الأرض، والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة، والله سبحانه يقول:

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾.

واختار الله لفظ الضرب؛ لأنه يوحي باحتدام الصراع وهيجان التفاعل ليقرع به أذن السامع قرعا ينفذ إلى قلبه، وينتهي به إلى أعماق نفسه.

ومن العجيب أن يصوِّره الله بهذين المثلين المحسوسين المتناقضين وهما الماء والنار، ومهما اختلطت بالحق شوائب فلابد من تنقيته بالحركة الدائمة، وتمحيصه ليتم تخليصه مما اعتراه من باطل، لكن..

لماذا لا يُعلن الحق عن نفسه منفردًا في الساحة؟

ألم يكن الله قادرًا أن ينتقم من الكفار جملة واحدة وينتهي الأمر؟!

والجواب:

لقد أراد الله ذلك ليجعل الباطل جنديا من جنود الحق، ولو لم يُتعِب الباطل الناس أكانوا يتجهون صوب الحق؟

كلا؛ ولذلك كان لابد أن يأتي الباطل للناس ويُتعبهم بحثًا عن الحق.

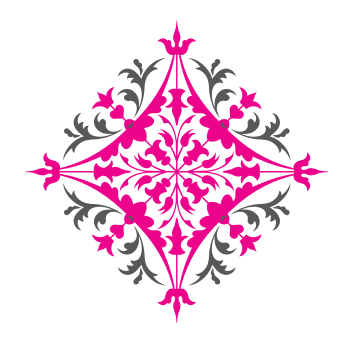
وضربوا لذلك مثلاً..



وهو أن الألم عند المريض جندٌ من جنود العافية، فلولاه لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض حتى يُهلكه، لكن الألم يلفت انتباه المريض إلى موضع الداء، ويدفعه للبحث عن الدواء للاستشفاء، وبذلك يبلغ ساحل العافية.

فالباطل إذن من جنود الحق كما الألم من جنود الشفاء؛ ويبتلي الله أهل الحق بأهل الباطل ليدمغ الباطلَ بالحق، وتهوي سافلة كلمة الباطل أمام كلمة الله العالية كما قال ربنا: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين، وسياقها بالجملة الفعلية يوحي بالتغير، وأنه علو طارئ لما يُشعِر به الجعل من الاضطراب، وأما كلمته سبحانه وتعالى فجاءت بالجملة الإسمية التي تُستَعمل في إثبات الحقائق الراسخة، لأن كلمة الله هي العليا دوما، والعلاء مصير كل من تمسَّك بها، والدنو والتسفل جزاء من هجرها أو عاداها، وإذا تصادمت الكلمتان وتصارعتا بطلت كلمة الذين كفروا، واستقر ثبوت كلمة الله في المعالي.





ولكِنَّكُم تَستَعجِلون



في حديث **خبَّاب** رضي الله عنه:

شَكَوْنَا إِلَى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسِّدٌ بُرْدة له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا:

ألا تستنصِر لنا؟!

ألا تدعو لنا؟

فقال وقد أخبره عن ابتلاء السابقين بأشد مما ابتلوا به:

«والله ليُتمنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله والذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون».

وخلاصة الوصية النبوية:

لا تستعجلوا فإن من كان قبلكم قاسوا أشد مما لاقيتم، وأصعب مما قاسيتم لكنهم صبروا، وأخبرهم بذلك ليقوّي صبرهم على الأذى ويعينهم على طول الطريق، فليصبروا على أمر الدين كما صبر من سبقكم من المؤمنين بقوة اليقين، ولينتظروا الفرج من الله، فإن الله مُتِمُّ هذا الأمر، ومُمكِّن سلطانَ هذا الدين بنصره وإظهاره على الدين كله، وتقوية شوكته وبسط نفوذه وتطبيق أحكامه، فينتشر الأمن والأمان في الأرض ببركة الإسلام، حتى يسير الراكب هذه المسافة البعيدة الموحشة آمنا مطمئنا لا يخشى لصا ولا قاطع طريق، وقد صار الأمر كما أقسم النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان واثقًا من نصر الله بينما كان يرى أصحابه يبطحون في رمضاء مكة، ويعذَّبون أمام عينيه، ويُقتل منهم أحب الناس إلى قلبه، لكنه على ثقة من



وعد ربه له، وحتى حين لم يكن قد أسلم معه إلا أربعة: مولى، وشيخٌ، وصبيٌ، وامرأة!

ونحن والله أعجل من الصحابة لنزول نصر الله وحلول فرجه!

والاستعجال فطرة بشرية، فالنفس مولعة بحب العاجل؛ والإنسان عجول بطبعه، وجعلها الله من سجيته وجبلّته حتى جعل القرآن العَجَل كأنه المادة التي خُلِق منها الإنسان:

﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]

فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره، وضاق صدره، ناسيًا أنَّ لله في خلقه سننًا لا تتبدل، وأنَّ لكل أجل كتاب، وأنَّ الله لا يعجل بعجلة أحدنا، وأن لكل ثمرة أوان تنضج فيه فيحين قطافها، والاستعجال لا ينضجها قبل وقتها، والعجلة قال فيها **الراغب** رحمه الله:

«العجلة: طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه»(١).

وفصَّلها **أبو حاتم** العجلة حين قال:

«العَجَل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعدما يحمد، ويعزِم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم»(٢).

لا تعجلنَّ فربّما ... عجِل الفتى في ما يضُرّه
ولرُبّما كَرِه الفتى ... أمرا عواقبه تسرُّه

(١) التوقيف على مهمات التعاريف عالم الكتب ١/ ٢٣٦.
(٢) روضة العقلاء ص٢١٦.



وفي الآية ما يفيد أن الآدمي معذورٌ على الاستعجال لأنه له كالأمر الطبيعي الذي لابد منه، فلم رتب الله عليه النهي بقوله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾؟

والإجابة:

أن في هذا تنبيه على أن ترك العجلة حالة شريفة وخصلة عزيزة، وأولى الناس بها أصحاب الرسالات السامية والمهام العظيمة والآمال الشامخة، وقد ركَّب الله في الإنسان الشهوة وأمره أن يغلبها.

قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

أي إن نقمتى ستصيبكم لا محالة، فلا تتعجلوا عذابي، واصبروا حتى يأتى وعد الله الذي لا يُخلِف الميعاد.



نوعا الاستعجال

١ - استعجال النتائج:

نوح عليه السلام دعا ألف سنة إلا خمسين عامًا ولم يستجب له إلا قلة قليلة، فإذا لم ير الداعية نتيجة عمله وأمره ونهيه فربما استحسر وترك العمل، مع أنه يعمل لوجه الله، ولا يريد من الناس جزاء ولا شكورا، لذا فعليه ألا يستعجل، وليربط قلبه بأجر الله ومثوبته، وأما النتائج الدنيوية فإن لم تأت اليوم أتت غدًا، وإذا ما جاءت على يديك فستأتي على يد غيرك.



٢ - استعجال خطوات الإصلاح:

الصورة الثانية من الاستعجال أن بعض الناس قد يتعجل في الخطوات في ميادين الإصلاح، وربما تسبب هذا التعجل في قطع الطريق على الإصلاح، وأفسد من حيث أراد أن يصلح، وهذه الطريقة تؤدي إلى كثرة العداوات والخصومات، ويستفز الناس فيقفون ضده، وبالتالي لا يستطيع أن يواصل طريقه.

واسمعوا الإمام **البنا** يخاطب إخوانه قائلاً:

«أيها الإخوان المسلمون!

وبخاصة المتحمّسون المتعجِّلون منكم، اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع:

إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده، ولست مخالفا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم للوصول.

أجل قد تكون طريقًا طويلة ولكن ليس هناك غيرها.

إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال، وخيرٌ له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة.



أيها الإخوان المسلمون:

أجموا نزوات العواطف بنظرات العقول.

وأنيروا أشعّة العقول بلهيب العواطف، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلّابة.

ولكن غالبوها واستخدموها وحوِّلوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض.

وترقّبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد».



من التاريخ نتعظ!

ولكن..

كم مضى على اليهود وهم مشردون مضطهدون في ربوع الدنيا؟

قرونٌ طويلة وهم أقليات مطاردة مشرَّدة في كل بلاد العالم، لكن هل دام بهم هذا الحال؟!

كلا.. بل صار لليهود اليوم دولة في مصاف الدول المتقدِّمة، ولهم أقوى نفوذ في الغرب وأمريكا، وكلمتهم اليوم مسموعة مطاعة، ولهم قوة ناعمة تتجاوز أبعد الحدود، مع أنهم ملايين خمسة ليس غير، لكن هل سيدوم هذا الحال؟!



كلا.. والله بل قوتهم إلى زوال، وتوقعات زوال دولة إسرائيل خلال عقد أو عقدين من الزمان على الأكثر متواترة عبر استقراءات قرآنية ونبوءات تلمودية وبحوث استراتيجية، ومع هذا كله البشارات النبوية، ففي حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه:

«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم.. هذا يهودي ورائي فاقتله»(١).

ولا نرجم بالغيب بعد كلام الصادق المصدوق ﷺ، ولا نشك مقدار لحظة في الوحي، وقد قال **عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب** عن كلام رسول الله ﷺ:

«وَاللهِ مَا كَذَبْنَا وَلَا كُذِبْنَا»..

ونحن نردِّد من ورائهم هذا القول، واثقين في وعد النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.



تأخر النصر.. لماذا؟!

يقول **سيد قطب** رحمه الله تعالى كلامًا رائعًا عجيبا في أسباب تأخير النصر أو بطئه:

«والنصر قد يبطىء

على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٤١٤.



هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطئ النصر

لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا!

وقد يبطئ النصر

حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزا ولا غالبا، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر

حتى تجرِّب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر.. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر

لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.



وقد يبطئ النصر

لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه،أو تقاتل حمية لذاتها،أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه.

كما قد يبطئ النصر

لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا، ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خيرتذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر

لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله; فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه منذي بقية!

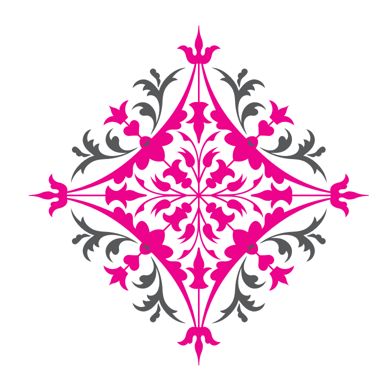
وقد يبطئ النصر

لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها



معها قرار، فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام.. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية»[1].



(١) في ظلال القرآن تفسير سورة الحج ص ٢٤٢٦، ٢٤٢٧.



إنّا لله وإنا إليه راجعون



قال سبحانه وتعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

قال **شمس الدين المنبجي** رحمه الله:



«وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ملجأً وملاذًا لذوي المصائب، وعظمةً للممتحنين من الشيطان، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيِّج ما سكن، ويُظهِر ما كمن»(١).

ولذا كانت الاسترجاع عطية ومنحة اختص الله بها هذه الأمة كما قال **سعيد بن جُبَير** رحمه الله:

«لم يُعْطَ لأَحَدٍ من الأُمَمِ الاستِرجاعُ غير هذه الأُمَّة.. أما سمعت قول **يعقوب**: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]»(٢).

وأما الثواب السريع للاسترجاع ففيه قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجُرْني في مصيبتي، واخلُف لي خيرا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلَفَ الله له خيرا منها»(٣).

وحدث هذا الإخلاف بخير بالفعل مع راوي هذا الحديث وهي **أم سلمة**، فقالت:

(١) تسلية أهل المصائب ١/ ١١ –شمس الدين المنبجي – دار الكتب العلمية.
(٢) شعب الإيمان ١٢/ ١٧٨.
(٣) صحيح: رواه مسلم وابن ماجه عن أم سلمة وأحمد عن أم سلمة عن أبي سلمة كما صحيح الجامع رقم: ٥٧٦٤.



«فلما مات **أبو سلمة** قلتها فجعلت كلما بَلَغْتُ: «أبدلني خيرًا منها» قلتُ في نفسي:

ومن خير من **أبي سلمة**؟!

فلما انقضت عدتها بعث إليها **أبو بكر** يخطبها فلم تُزوِّجه، ثم بعث إليها **عمر** يخطُبُها فلم تُزوِّجه، فبعث إليها رسول الله ﷺ **عمر بن الخطاب** يخطبها عليه قالت:

أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غَيْرى (من الغيرة)، وأني امرأة مُصبِيَة (لي صبية)، وليس أحد من أوليائي شاهدا، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقال:

(ارجع إليها فقل لها:

أما قولك: إني امرأة غيرى فأسأل الله أن يذهب غَيْرَتك.

وأما قولك: إني امرأة مُصبِية فتكفين صبيانك.

وأما قولك: إنه ليس أحد من أوليائك شاهد، فليس من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك)، فقالت لابنها:

يا **عمر**! قم فَزوِّج رسول الله ﷺ فزَوَّجه، فكان رسول الله ﷺ يأتيها ليدخل بها، فإذا رأته أخذت ابنتها زينب، فجعلتها في حجرها، فينقلب رسول الله ﷺ فعلم بذلك **عمار بن ياسر** وكان أخاها من الرضاعة فجاء إليها فقال: أين هذه المقبوحة التي قد آذيتِ بها رسول الله ﷺ فأخذها، فذهب بها فجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها، فجعل يضرب ببصره في جوانب البيت وقال:

«ما فعلت زينب؟!»



قالت: جاء عمار فأخذها، فذهب بها فبنى بها رسول الله ﷺ وقال:

«إني لا أنقصك مما أعطيت فلانة رحائين وجَرَّتَين وَمِرْفَقَة حشوها ليف».

وقال:

«وإن سَبَّعْتُ لكِ سَبَّعْتُ لنسائي»[١].



فلنفهم بقلوبنا مغزى هذا الشعار، وقيمة هذه الكلمات التي تمثِّل خير دواء لأي مصيبة:

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾:

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله، ونقبل منه كل ما يُجري علينا من أقدار، وعلى كل مؤمن أن يعرف حقيقة نفسه وملكيتها، فيقول: أنا مملوك لله وليس لي عنده حق، فما يُجريه علي إنما يُجريه في مُلْكِه هو، وخالق الخلق هو مالكهم وأولى بهم من أنفسهم، وهنا لابد أن نسائل أنفسنا:

هل رأيتم أحدًا أفسد ملكه؟

هل سمعتم عن غني بدَّد ثروته بالتضييع والأذى؟!

(١) صحيح: رواه كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٩٣. وفي رواية: «إن شئتِ سبَّعْتُ عندَكِ، ثمَّ سَبَّعْتُ عند سائر نِسائي، وإن شئتِ ثَلَّثْتُ ودُرْتُ»، فقالت: ثَلِّثْ ودُرْ، فمعنى سَبَّعَ: أقام عندها سبعا، وثَلَّثَ: أقام عندها ثلاثًا.



كلا.

إنَّ صاحبَ المُلْكِ يبذل كل ما في وُسعه لإصلاح مُلكِه، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر غير ذلك، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن مِلْكٌ له! وهو سبحانه لا يُعرِّض مُلكَه أبدًا للضرر، وإنما يُقيمه بما يصلحه وفقًا لحكمته وحُسْن تدبيره.

قال **السعدي**:

«أي: مملوكون لله، مُدبَّرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد: علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك»[1].

وأما قوله:

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي راجعون إليه، وهو إقرار بحتمية الرحيل إلى الله، والبعث للوقوف بين يديه، فإن ظُلِمنا في الدنيا، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه ونقتص من ظالمنا عند الرجوع إلى الله، فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله انتهاء بالرجوع إليه؛ فهو سبحانه ملك الابتداء والانتهاء، ليثيب المحسن ويعاقب المسيء، ولا ظلم عند الله سبحانه، فلا يظلم مثقال ذرة.

فما هي مكافأة الاسترجاع كما ورد في القرآن؟!

(١) تفسير السعدي ١/ ٧٥.



﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾.

فلننظر إلى غاية الغايات التي يدرِّبنا الله عليها لنحمل الدعوة، ونحمي منهج الحق ونهدم دولة المبطلين، وهي -على عظمتها- غاية مرحلية؛ لكنها ليست الغاية النهائية، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لننال رحمات الله وبركاته في الآخرة، فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته.

قال **سيد قطب**:

«إنه لا يعدهم هنا نصرًا، ولا يعدهم هنا تمكينا، ولا يعِدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئًا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يعِدُّ هذه الجماعة لأكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثَمَّ يجرِّدها من كل غاية، ومن كل هدف، ومن كل رغبة من الرغبات البشرية، حتى الرغبة في انتصار العقيدة، كان يجرِّدها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضا الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.. هذا هو الهدف وهذه هي الغاية.

وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها..فأما ما يكتبه الله بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة وجزاء على القتل والشهادة، إن الكفة ترجح بهذا العطاء، فهو أثقل في الميزان من كل عطاء..أرجح من النصر



وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور.

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين»[1].

وكأن انتصار العقيدة وسيلة للفوز بالصلوات والرحمة من ربك، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلِّم إلى غاية، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله:

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وحقيقة الصلاة في كلام العرب أنها أقوال تنبئ عن محبة الخير، ولذلك كان أشهر معانيها الدعاء، فكانت الصلاة إذا أسندت إلى الله أو أضيفت إليه دالة على الرحمة وإيصال ما به النفع من رحمة أو مغفرة أو تزكية، فلله صلاة، وللملائكة صلاة، وللناس صلاة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء.

وذكَرها في الآية بلفظ الجمع ﴿صَلَوَاتٌ﴾ لأن بعضها يتلو بعضا، ثم قال: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، مع أن صلاة الله رحمة، لكنه أعادها هنا مع اختلاف اللفظ لتكون أوكد وأبلغ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ وجهان محتملان:

أحدهما: المهتدون إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن.

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٤٦.



والثاني: المهتدون إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر.



ليست كلامًا فحسب!

وليس الصبر باسترجاع اللسان فحسب، بل وبالقلب بأن يتصور ما خُلِقَ لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكَّر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه، ويستسلم له. قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«فالمراد من القول هنا القول المطابق لاعتقاد القلب، وإنما يكون ذلك القول معتبرا إذا كان تعبيرا عما في الضمير، فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها فضل، وإنما هو كالذي ينعق بما لا يسمع، وقد علَّمهم الله هذه الكلمة الجامعة لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يُقوي بالتصريح لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحِسِّ، ولأنَّ في تصريحهم بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليمًا له للناس»[1].

ولذا اعتبرها **ذو النون** رحمه الله من علامات هداية القلب، فكل من أُلهِم الاسترجاع فقد اهتدى:

«ثلاثَةٌ من أعلام الهدى: الاسترجاعُ عند المصيبة، والاستكانة عند النِّعمَة، ونفي الامتنان عند العطيَّة»[2].

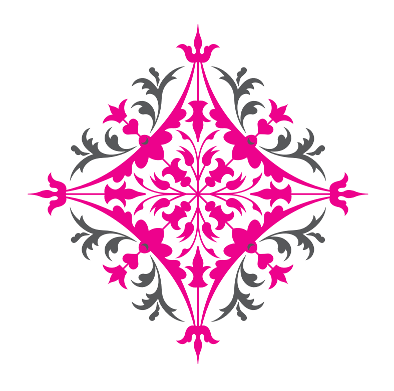
(١) تفسير التحرير والتنوير ٢/ ٥٧.
(٢) شعب الايمان ١٢/ ٣٤.



ولهذا قال الله في وصفهم:

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾

وهو بيان لفضيلة من فضائلهم، فلم تُزعِجهم المصائب، ولم تكن لهم حاجبا عن بلوغ مقام الصبر، لعلمهم أن الحياة لا تخلو من الأكدار، وأما الذين لم يهتدوا فالمصائب سبب اعتراضهم على الله أو كفرهم به، أو التفوه بما لا يليق، أو شكِّهم في ربِّهم، ويقولون لو كان هذا هو الدين الحق لما لحقنا العذاب والمصائب.





إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون



في تفسير هذه الآية قال **ابن عطية** رحمه الله:

«اليأْس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين.. إذ فيه إمَّا التكذيب بالربوبية، وإمَّا الجهل بصفات الله تعالى»(١).

وهذا بخلاف صفة المؤمن الذي يشكر الله عند النعمة، ويرجوه عند الشدة.

وللرازي رحمه الله تعليق لطيف على هذه الآية التي نطق بها **يعقوب** عليه السلام، وهو الذي فقد ابنه **يوسف** أربعين سنة، ومع هذا لم يخالج قلبه يأس ولا قنوط، فأرسلها في أبنائه رسالة خالدة أن لا يأس مع الإيمان، وإنما اليأس سمة الكافرين.

قال **الرازي** رحمه الله وهو يبيِّن علاقة الكفر باليأس في لمحة رائعة لم يسبقه إليها غيره:

«واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا..



اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال.

أو غير عالم بجميع المعلومات.

أو ليس بكريم، بل هو بخيل.

وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا»(٢).

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ٢٧٤.
(٢) تفسير الرازي: ١٨/ ١٩٩.



فالمؤمن له صلابةٌ إيمانية تصد عنه أحداث الحياة؛ فالحياة كلها أكدار، وثباتها على حال محال، والدهر أيام، يوم لك، ويوم عليك.

واليأس والقنوط سبب من أسباب فساد قلب العبد.

قال **ابن القيم** رحمه الله وهو يُعدِّد الكبائر:

«فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن»[(١)].

أخي..

هَبْ أن أسبابك انقطعت، ولم يبق لديك منها شيء، وبذلت قصارى جهدك في تحصيل مطلوبك، ثم لم تبلغ مرادك.. فهل تعلم أن لك ربا قديرا يخرق الأسباب، ويجبر كسر المؤمنين، ويسد خلل المتوكلين، فكيف يتسرَّب بعدها اليأس إلى قلبك؟!

وكيف تذهب نفسك على جهدك حسرات؟!

ومنبع اليأس من رحمة الله أن العبد يجعل قوة الله العليا مساوية لقوة الخلق، فإذا ضاقت به الدنيا وتكاثرت عليه الخطوب أصابه اليأس، لأنه قلبه لم يؤمن حق الإيمان

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣٣.



بالقدرة الإلهية، وغفل عن قوة الله وبطشه وسلطانه، فوقع فريسة لهذه الأوهام، ولذا جاء في الأثر:

«لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ».

وما عزَّ عليك بقانون الأرض، فاطلبه بقانون السماء، وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب وتوكَّل على الله؛ فليثق أن الله يمِدُّه بما هو فوق الأسباب.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

متى يرفع الناس الراية البيضاء؟!

عندما ييأسون، وهذه قمة الفشل ومنتهى الانهزام، ولا قيام للعبد من هذه النازلة أبدا، ولذا قال ربنا:

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إخوتاه..

لا ينتصر أهل الباطل أبدًا.. فقط الطرف الآخر.. يستسلم!

إنه خبر الوحي على لسان النبي المعصوم ﷺ؛ فإياكم أن تحتار عقولكم فيه؛ وترتاب قلوبكم حوله، فالعقول لها سقف معلوم لا تتجاوزه، وقد لا تعقل ما وراءه، وأما صنائع الله ففوق مُدْركات العقول، فإياكم أن تستغربوها بعقولكم فتجزعوا، وأن تُكذِّبوها بقلوبكم فتيأسوا.





من آثار اليأس!

من آثار اليأس

ترك العمل وانقطاع السير وتوقف السعي والاستسلام للفشل، ورفع الراية البيضاء، وفتح بوابة الفشل والخذلان إذ لا فائدة من المواصلة بزعمه.

قال **ابن حجر الهيثمي** رحمه الله:

«القانط آيِسٌ من نفع الأعمال، ومن لازم ذلك تركها»[١].

ومن آثار اليأس

أنه يُخرج القلب عن سكينته وأنسه إلى انزعاج وقلق وهمٍّ يفتِّت الأكباد ويورث السُّهاد، ويقلب الشاب كهلاً كبيرًا.

ومن آثار اليأس

أنه يعدي! فانتشاره في من حولك انتشار النار في الهشيم، وخاصة لو كنت قائدا أو رمزا يركن الناس إليه عند الملمات، ولذا فطن فقهاؤنا إلى ضرورة انتقاء القادة الأفذاذ لجنود الجيش، ممن لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلاً، وأوردوا ذلك في كتب الفقه ودوَّنوه، وأوصوا به حرصًا على سلامة الجيش

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٢٢.



وطلبًا لانتصاره. قال **ابن قدامة** رحمه الله في وصاياه لأمير الحرب:

«ولا يَسْتَصْحِبُ الأمير معه مُخذِّلاً، وهو الَّذي يُثَبِّطُ النَّاس عن الغزو، ويُزهِّدُهُم في الخروج إليه والقتال والجهاد، مثل أن يقول: الحرُّ أو البرد شديدٌ، والمشقَّةُ شديدةٌ، وولا تُؤمَن هزيمة هذا الجيش، وأشباه هذا، ولا مُرْجِفا، وهو الَّذي يقول: هَلَكَتْ راية المسلمين، ومالَهم مددٌ، ولا طاقة لهم بالكُفَّار، والكُفَّار لهم قُوَّةٌ، ومددٌ، وصبْرٌ، ولا يثبتُ لهم أحدٌ، ونحو هذا»[1].

ومن آثار اليأس

أنه يوقع العبد في براثن ظن السوء بربه، «فمن ظنَّ بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيِّده ويؤيِّد حزبه، ويُعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوء.

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء»[2].

(١) المغني ٩/ ٢٠١ – أبو محمد ابن قدامة المقدسي– مكتبة القاهرة.
(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٠٥، ٢٠٦.



فَإِنَّ مع العُسرِ يُسرًا



وهي سنة عرضت لها كثيرٌ من آيات القرآن، فقد أخبرنا الله في كتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾.

فالغيث بعد القنوط، والنصر بعد الاسيئاس.

قال علي رضي الله عنه:

«عسر المرء مقدّمة اليسر»(١).

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾:

قال الزمخشري رحمه الله:

«أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرَّب اليسر المترقِّب حتى جعله كالمقارن للعُسْر، زيادةً في التسلية وتقوية القلوب»(٢).

فبشَّر الله عباده بأن كل عسر لابد وأن يتبعه يُسر، وأكَّد ذلك بإن المؤكدة للخبر، وزاد التأكيد قوة بالتكرير، ثم وسَّع دائرة الفضل ونشر الطمأنينة بما يوحي به تنكير

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار ١/ ٣٣٠.
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤/ ٧٧١.



اليُسر وتعريف العُسر، وإن العرب إذا أعادت الاسم بأداة التعريف -وهي الألف واللام- كان المذكور ثانيا هو المذكور أولاً، ولهذا قيل:

(لن يغلب عسرٌ يسرين).

قال **إسحاق بن بهلول** القاضي رحمه الله:

فلا تيأس إذا أعسرت يوما	**فقد أيسَرتَ في دهرٍ طويل**
ولا تظننَّ بِـرَبِّك ظنَّ سوء	**فـإنَّ الله أولــى بالجميــل**
فإن العُسْــر يتبعه يَســار	**وقــول الله أصدقُ كل قيل**

مع الضيق فرج، ومع الشدة سعة، والبلايا إذا توالت تولَّت، وفي رحم كلِّ ضائقة أجنة انفراجها ومفاتيح حلها، فصنع الله عجيب، وفرجه قريب، ولأن تكون في شدةٍ تتوقع بعدها رخاءً؛ أحب من أن تكون في رخاءٍ تقع بعده شدَّة، وأقدار الله غالبة.

قال **عبد العزيز بن سليمان الأبرش**:

تجري المقادير إن عُسرا وإن يُسرا	**حاذرت واقعها أو لم تكن حَـــذِرا**
والعُسر عن قَدَرٍ يجــري إلى يُسْر	**والصَّبر أفضل شيء وافق الظفرا**

وكلمة ﴿مَعَ﴾ هنا مستعملة في غير حقيقة معناها لأن العسر واليسر نقيضان فاجتماعهما مستحيل، فالمعية هنا مستعارة للتأكيد على قرب حصول اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره.

ضــاقت ولو لم تضِقْ لما انفـرجت	**فالعُســرُ مفتــاح كل ميســور!**





ضحك ربنا!

إن العباد إذا نزلت بهم شدة فإن كثيرًا منهم يقنطون، وقد جعل الله سبحانه وتعالى لكل أجل كتابا، ولكل هَمٍّ نهاية، ولكل كرب فرجا، ولكن القوم يستعجلون، والله سبحانه وتعالى يعجب من قنوطهم، ويضحك من قرب فرجه، ففي الحديث:

«ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده، وقُرْبِ غِيَرِهِ».

فقال **أبو رزين**:

أو يضحك الرب عز وجل؟ قال: نعم. فقال: لن نَعْدَمَ من ربٍّ يَضحك خيرًا[١].

والغِيَر بمعنى تغير الحال، فمن الضعف إلى القوة، ومن المرض إلى العافية، ومن الذل إلى العز، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الفقر إلى الثراء، والضمير في «**غِيَرِه**» لله، والمعنى أن الله تعالى يضحك من أن العبد يصير آيسا من الخير إذا نزل به أدنى شر يصيبه، مع قرب تغير الحال من شر إلى خير، ومن بلاء ومحنة إلى سرور وفرحة، فجعل الضحك من الرب سبحانه دليلاً على حصول الخير.

وقوله: «**لن نَعْدَمَ**» أي لن نفقد الخير من رب يضحك.

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده عن أبي رزين كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٨١٠.



قال **السندي** رحمه الله:

«يريد أن الرب الذي من صفاته الضَّحِك لا نفقد خيره، بل كلما احتجنا إلى خير وجدناه، فإنا إذا أظهرنا الفاقة لديه يضحك فيُعطي»(١).

إذا تضايق أمـرٌ فانتظر فرجًا   فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وبهذا نطق اللسان النبوي مكرِّرا نفس المعنى وبنفس الكلمات للتأكيد وطمأنة القلوب المضطربة وتثبيت المتزلزلين:

«النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا، وإن مع العسر يسرا»(٢).

وسرت كلمات الوحي في دماء الصحابة، وامتزجت أنواره بدمائهم، ففاضت بها ألسنتهم، فلما حُصِر **أبو عبيدة** فكتب إليه **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه نص القانون الذي تعلموه في مدرسة الوحي كتابا وسُنة:

«مهما ينْزل بامرئٍ شدَّةٌ يجعل الله بعدها فرجًا، وإنَّه لن يَغلِبَ عسرٌ يُسرين»(٣).

---

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/ ٨٧. قال **ابن تيمية** في الفتاوى بتصرف: «فالضحك في موضعه المناسب له صفة مدح وكمال، وإذا قُدِّرَ حيَّان أحدهما يضحك مما يُضحَك منه؛ والآخر لا يضحك قط كان الأول أكمل من الثاني، فجعل الأعرابي العاقل -بصحة فطرته- ضحكه دليلا على إحسانه وإنعامه؛ فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال، والشخص العبوس الذي لا يضحك قط هو مذموم بذلك». مجموع الفتاوى ٦/ ١٢١.

(٢) أخرجه الخطيب في التاريخ والديلمي كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٣٨٢.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٤/ ٥١٨ - دار الكتب العلمية.



تصَوَّر أخي انجلاء الشَّدة وانكشاف الهموم، فإنَّها مُقدَّرة بأوقات لا تنصرِف قبلها، ولا تستمر بعدها، فلن تقْصُر مدتها بِجزعك بل بصبرك، وكُلَّ يوم يمرُّ يذهب منها بشطر، ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلي فجأة!

ليس من شدة تصيبك إلا	**سوف تمضي وسوف تُكشَف كشفا**
لا يضيق صدرك الرحيب فإن الـ	**ـنار يعلو فيها لهيبها ثم تُطفا**

والتجارب تشهد لمفعول هذه الآية، وشرط ذلك أن يردِّدها العبد بيقين، ويصدح بها قلبه قبل لسانه، فتنطلق منه سماوية مشحونة بأقوى مشاعر الظن الحسن ومعاني الرجاء في رحمة الله، فتستخلص اليسر من بين أنياب العُسر، وتستعجل الفرج، وهكذا فعل **عبد القادر الجيلاني** رحمه الله فقال:

«ترِدُ عليَّ الأثقال الكثيرة، ولو وُضِعت عَلَى الجبال تفسَّخَتْ، فأضع جنْبي على الأرض، وأقرأ:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

ثمّ أرفع رأسي وقد انفرجت عنّي»[1].

عسى فرجٌ يكون عسى	**نُعلِّل نفسنا بعسى**
فلا تقنط وإن لاقيتَ	**هَمًّا يقبض النَّفَسا**
فأقرب ما يكون المرء	**من فرَجٍ إذا يئسا**

(١) تاريخ الإسلام ٣٩/ ٩٦.



وإن مِن شيء إلا عِندنا خزائنهُ



شبَّه الله اقتداره على كل شي بالخزائن المودعة فيها الأشياء، المعدَّة لإخراج الكنوز، ومعنى ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي نُخرِجُه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بقدر معلوم، والقدَر المعلوم هو الأجل المعين له هو حسبما تقتضي حكمة الله ومشيئته، وكأنه يعلِّمك أن لا تطلب أي شيء إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبك من غيره طلبٌ ممن لا يملك ولا يقدر.

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدين

واستَرْزِق الله مما في خزائنه ... فإنما هي بين الكاف والنون

وهذه الخزائن إما مادية وإما قلبية إيمانية، والإيمان أهم وأغلى وأثمن، فقوت الصبر والثبات واليقين والتوكل والاستقامة كلها لا يملك مفاتيح خزائنها إلا الله، ولولا ذلك لهلك العبد في الدنيا وشقي في الآخرة، ولهذا كان من روائع وجوامع الدعاء النبوي:

«اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك»(١).

وهذا ما يقذف به في قلب كل مؤمن اسم الله (المُقيت).

وأصل المقيت القوت، و«مُقيت» من «قاته» أي أعطاه القوت، لكن لماذا يعطي الله عباده القوت؟

ليحفظ عليهم حياتهم، وإذا تخلف عن العبد هذا القوت لحظة تعطَّلت حياته،

(١) حسن: رواه الحاكم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٦٠.



وفسد جوارحه وأركانه، فإن امتنع القوت عن أي عضو من أعضائه توقَّف عن العمل، فعينك لها قوت لتبصر، ووقلبك له قوت ليضخ الدم في الجسد، ويدك إن لم تنل قوتها لم تقو على رفعها أو تحريكها، وهكذا، وسبحانه لا يُقيت الإنسان فقط ولكن يقيتُ كل خلقه، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات.

وسُمِّي به المقتدر لأنه قادر على إعطاء القوت، ثم صار اسما في كل مقتدر على كل شيءٍ من قوت غيره، كما قال **الزبير بن عبد المطلب**:

وذي ضَغَنٍ كَففْتُ النَّفْسَ عنه وكنتُ على مَسَـاءَتِهِ مُقِيتـَا

وعليه يدل قوله تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾.

والمقيت كذلك هو المحافظ عليهم من الهلاك بأن يعطي العبد القوت ليظل حيا فهو **(الحفيظ)**، وهو مستعمل في معنى الاطلاع ومتضمِّنٌ لمعناه، وهو مشاهدٌ لعبده الذي لا يغيب عن خالقه لحظة فهو **(الشهيد)**، وبما أنه يعطي القوت للإنسان بحسب حاجته فهو **(الحسيب)**، فهذه المعاني متداخلة ومتلازمة؛ وقد رأينا العلماء ينظرون إلى **(المقيت)** من زوايا مختلفة، وهم جميعا على صواب، سواء من جعل اسم **(المقيت)** من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب، وكل واحد إنما نظر إلى ملمح من ملامح هذا الاسم **(المقيت)** فوصفه.

وأعظم حديث يظهر اسم الله **المقيت** هو قول النبي ﷺ:

«إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة، وإن الصبر يأتي من الله على قَدْرِ



المصيبة»[١].

بمعنى أن العبد إذا تكفَّل برعيته التي وجب عليه رعايتها، فإنَّ الله يعينه بِحَسَب ما عليه من أعباء، فإن كانت رعيته قليلة قُلِّل له زاده ورزقه، وإِن كانت كثيرة أمدَّه الله برزق أوسع.



يد الله ملأى!

وفي الحديث الحاث على الطلب المشوِّق للدعاء الدافع إلى التعلق برب واسع العطاء:

«يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»[٢].

يغيض أي ينقص، ومنه غاض الماء إذا غاب في الأرض، والمراد الإخبار بأن الله تعالى لا يُنقِصه الإنفاق، ولا يُمسِك خشية الإملاق حاشاه، وعبَّر ﷺ عن توالي النعم بسَحِّ اليمين؛ والسحَّاء هي الدائمة الصب، فيُقال: سحابة سحوح: أي كثيرة المطر، فلا يُعجزه كثرة ما تطلبون، فإن خزائنه لا تنفد، وعطاياه لا تفنى.

---

(١) صحيح: رواه الحكيم والبزار والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٩٥٢.
(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة كما في صحيح رقم: ٨٠٦٦.





وربطنا على قلوبهم!

وهو الربط الذي ربطه الله على قلوب أصحاب الكهف الذين فروا بدينهم، والربط يعني أن تربط على الشيء وتشدَّ عليه لتحفظ ما فيه، كما تُربَط القِرْبة حتى لا يسيل منها الماء، وتُربَط الدابة كي لا تنفلت، وقد ربط الله على قلوب هؤلاء الفتية ليستمسكوا بالعقيدة والإيمان بالله، فلا يتزعزع مهما كانت الأحداث والشدائد، وقد وردتْ مادة (ربَط) في القرآن كثيرًا، ومنها قوله تعالى في قصة **أم موسى**: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

أي ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله والثقة بوعده الذي أوحى إليها أن تُلْقِيَ بولدها في الماء، وأي أمٍّ تقدر على أن ترمي فلذة كبدها في الماء لولا قوت الطمأنينة الذي رزقه به (المقيت)؟! ولولا قوت **(الثبات)** ما أطاقت الانتظار، ولانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب لتُلفِت إليه الأنظار:

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

ولكشفت عن الخِطَّة التي أمر الله بها لإنقاذ **موسى** عليه السلام، وهكذا اطمأن قلب **أم موسى** وسكن، ولولا **(المقيت)** ما سكن.

وهذا دليل على أن خزائن الله تنفتح على قلوب أوليـــائه دون أعـدائه، ولمن يحب دون من يُبغِض، فطـوبى لمن أدناه ربه فأكرمه بعطـاياه، ويا بـــؤس من طرده من قربه



وأخزاه.

إنَّ التعبير القرآني ﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ يوحي بأهمية هذا الرباط خاصة مع ضعف الإنسان أمام الفتن والخطوب والابتلاء، ولأن الله تعالى يعلم ضعف عباده وشدة حاجتهم إليه، فكان من رحمة الله أن تولى بنفسه إحكام هذا الرباط، وأمدَّهم بقوة من عنده، فأحكم قيد التثبيت على قلوبهم، وشدَّ الرباط الإيماني، فلا ينفذ إليه ضعف، ولا يعتريه وهن، بل هو رباط متين مُحكَم، قد غشيه الحزم والإحكام، وتولاه المولى الكريم بنفسه، ليثبِّت قلوب بني آدم، ويدفع عنهم فتنة الغرور الزائف، عندما ينسب العبد الفضل لنفسه، فكل ثبات ذاتي مآله الانهيار، وكل ثبات من الله مدهش ومصدرٌ للانبهار.

قال **ابن عطية** رحمه الله:

«ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشبِه الربط، ومنه يقال: فلان رابط الجأش إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها»[1].

ومعنى ثان:

يفيد ضعف القلب وهشاشته الدالة على هشاشة ابن آدم وضعفه، وأنه لولا تثبيت الله وعونه لهلك ولما قامت له قائمة، فالمعنى أنه لولا أن ربطنا على قلوبهم ما صمدوا ولا ثبتوا.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣-٥٠١ - ابن عطية الأندلسي - دار الكتب العلمية - بيروت.



ومعنى ثالث:

في ﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ تدل على سهولة تفلت القلب، كانفلات الوعاء بلا إغلاق، والكيس بلا إحكام، والباب بلا إيصاد! وفي تخصيص القلب إشارة لسرعة تغير القلب، وأنه أعجب ما في الإنسان، ومفتاح صحوته أو غفوته، ومضغة الجسد التي بصلاحها يصلح الجسد وبفسادها يفسد، وما سُمِّي القلب إلا من تقلّبه، وفي الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام:

«إنه ليَغان على قلبي، فأستغفر الله سبعين مرة في اليوم».

ومعنى رابع:

في ﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ وهو احتمالية طروء الانحلال وفك وثاق الرباط بفعل المعاصي وأثر الشهوات، وهنا تنحل عقدة الرباط، وينفك خيطا خيطا حتى ينحل تماما، وحين تبيت الصلابة الإيمانية في أضعف صورها؛ يسقط صاحبها عند أول اختبار.

وإشارة خامسة:

وهي ضرورة الحرص على حراسة القلب، فكأنه يُعبَّأ بالخير ومعانيه كالذكر والعمل الصالح، ويُصان من الشر ومخازيه، فلا يلج فيه ما يُكدِّره ويتسبب في مرضه.

وإشارة سادسة:

في الرباط وهو أنه حفظ إلهي للقلب من التقلب والانهزام والخذلان، حتى إنه ليثبت بفضل الله ثبات الجبال الراسيات في وجه أعاصير الشدائد والمحن.



ادعُونِي أَستَجِبْ لَكُم



كان **خالد الربعي** رحمه الله يقول:

«عجبت لهذه الامة في ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠] أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شرط.

قال له قائل: مثل ماذا؟

قال: مثل قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥] فها هنا شرط.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس:٢] فليس فيه شرط العمل.

ومثل قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤] فها هنا شرط.

وقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ليس فيه شرط»(١).



وهذا من عظيم فضل الله، فقد حثَّ عباده على الدعاء إشفاقا عليهم، ليوصل إليهم نفع الإجابة وعظيم الكرامة ووابل الفضل والإنعام، وجعل جزاء من استكبر عن الطلب منه نار جهنم، ومن كسل عنه كان مغبون الحظ، فإنه الخير الذي لا عوض عنه، والكنز الذي لا نظير له.

(١) القرطبي ٢/ ٣٠٩.



فعجبا لعبدٍ ذليل يحتفي به ربٌّ جليل، تدخل عليه بلا مواعيد، بل ولا حتى استئذان ولا حُجّاب، لتلقى ملك الملوك متى أحببت وأين ما أحببت!

ولهذا كان **سفيان الثوري** رحمه الله يقول في مناجاته:

«يا من أحبُّ عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا مَن أبغضُ عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك غيرُك يا ربِّ»[1].

وكل من عرف ربه رجاه، وكل من رجاه أنعم عليه بفضله وأدناه، وقد عرفه حق المعرفة **جعفر الصادق** رضي الله عنه، فلما سئل:

ما بالنا ندعو فلا يُستَجاب لنا؟!

فقال:

«لأنكم تدعون من لا تعرفونه»[2].

ومعرفته تكون بالأعمال والأحوال لا بالأقوال!

ومن كان كذلك فهو واثق في إجابة دعائه دنيا وأخرى.

قال **ابن عباس** رضي الله عنه:

«كل عبدٍ دعا استُجيب له، فإن كان الذي يدعو به رزقًا له في الدنيا أعطيه، وإن لم يكن رزقًا له في الدنيا ذُخِر له»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٥٣.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٣٠.



أركان وأجنحة وأسباب وأوقات

لكن للدعاء المجاب أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا.

قال ابن عطاء رحمه الله:

«إن للدعاء أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح؛ فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ»[1].

ومن حقَّق هذه الشروط استجاب الله له، ولتكن على ثقة من هذا غير مرتاب، بل موقن تمام اليقين بوعد الله وسنته التي لا تتخلف، ولتتعلم ثقتك هذه من قَسَمِ أبي عثمان النهدي! يقول عنه أحد أصحابه:

«كان أبو عثمان إذا دعا ودعونا يقول:

والله لقد استجاب الله عز وجل. قال الله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾»[2].

وحسبك أن الله يغير مقادير الكون ويغيِّر الأقدار من أجلك إذا أخلصت في

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٣١١.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ١١٨.



دعائك، وحديث **ثوبان** رضي الله عنه يبشِّر:

«لا يردُّ القدرَ إلاَّ الدعاءُ»[١].

وهذا دليل على أنَّ الله سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد، وأن الدعاء من أعظم الأسباب التي يستند إليها العبد، وفي العصور المادية الزاحفة يغفل كثير من الناس عن القوة العظمى والجبروت الإلهي، فينسى الدعاء أو يحتقره.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله:

«ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتِّكالاً على القَدَر كان مخطئا؛ لأنَّ الله جعل الدعاءَ والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرتُه ورحمتُه وهداه ونصرُه ورزقُه، وإذا قدَّر للعبد خيرًا يناله بالدعاءِ لم يحصل بدون الدعاء، وما قدَّره الله وعلِمَه من أحوال العباد وعواقبهم، فإنَّما قدَّره الله بأسبابٍ يسوقُ المقاديرَ إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلاَّ بسبب، والله خالقُ الأسباب والمسبَّبات»[٢].



ولو بعد حين!

فائدة في الحكمة من تأخير الإجابة: تحت هذا العنوان كتب **ابن الجوزي** رحمه الله قائلاً:

«نزلت بي نازلة، فدعوت، وبالغت، والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟!

(١) حسن: صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٦٣٨.
(٢) مجموع الفتاوى ٨/ ٦٩-٧٠.



فقلت له: اخسأ يا لعين! فما أحتاج إلى تقاض، ولا أرضاك وكيلاً.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو، لكفى في الحكمة.

قالت: فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة! فقلت:

الأول:

قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني:

أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة، والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة في ما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر، يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث:

أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ:

«لايزال العبد في خير ما لم يستعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي!».

والرابع:

أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة



منه، فابحثي عن بعض هذه الأسباب، لعلك تقعي بالمقصود.

والخامس:

أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح، وقد روي عن بعض السلف: أنه كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: إنك إن غزوت أُسِرتَ، وإن أُسِرتَ تنصَّرت!

والسادس:

أنه ربما كان فقد ما فقدته سببًا للوقوف على الباب واللجأ، وحصوله سببًا للاشتغال عن المسئول، وهذا الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة، ما رأيناك على باب اللجأ، فالحق -عز وجل- علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طَيِّ البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه، ففيه جمالك.

وقد حُكيَ عن **يحيى البكّاء** رحمه الله أنه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال: يا رب! كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال:

يحيى! إني أحب أن أسمع صوتك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء، تشاغلت بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك، مِن رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب»[1].

(١) صيد الخاطر ١/ ٨٢، ٨٣.



وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن ينصُرُه



هذا قَسَمٌ من رب العزة جل جلاله، ولذلك كانت اللام ونون التوكيد الثقيلة، وكان القسم من ذي العزة والجلال أن ينصر من ينصره بأن ينصر دينه ويطيع أوامره، ويجتنب نواهيه، ويكون معليا لكلمة الحق والإيمان ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦].

والكل اليوم يتساءل:

متى نصر الله؟

أما آن لهذا الليل أن ينجلي؟

أما آن للفجر أن ينبلج؟

أما آن للقيد أن ينكسر؟!

لكن لا نسائل نفسنا مخلصين:

ما دورنا في انجلاء الظلمة وانبلاج الفجر وتحطيم القيد؟!

ألا فليعلم كل من خالف أمر ربه وعصاه أنه رجَّح كفة الأعداء على حساب أمته.

وليعرف من أعرض عن أوامر الله أنه يُثْخِن الجراحات في جسد الأمة، وكل جرح بحسب قدر الذنب وانتشاره، فصاحب الكبائر المجاهر بها أكثر إثخانا في جسدنا وإضعافًا لنا، وليعلم كذلك كل من يتهاون في نصح غيره تاركًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات أنه يطيل زمن التيه والكربات.

إن كل واحد منا اليوم مدعوٌّ لأن يزن نفسه بميزان العمل والإصلاح ليعرف هل



هو خصم لهذه الأمة أم موالٍ لها.

هل والى أعداءها بمعاصيه وباعد نصرها؟!

هل أطال ليلها أم صاغ فجرها؟!

هل شقِيَت به أمته أم سعِدت؟!



مِنْ عِند أنفسكم!

قال الله تعالى في مصاب المسلمين يوم أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، أنتم السبب في ما أصابكم.

وقد جاءت صيغة التأكيد عن طريق الإتيان بالضمير في الإجابة: ﴿هُوَ﴾، وبالإتيان بالظرف وهو ﴿عِندِ﴾، وبالتعبير بقوله ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، وهذه إشارة واضحة إلى ضرورة مراجعة النفس ومحاسبتها، وما نسميه اليوم بالمراجعة الذاتية، فقد أراد الله سبحانه أن يعلِّم المسلمين دروس الهزيمة مما يتمكنون به من تجنب أسبابها في المستقبل.

فهل تدرون ما هذا الذي كان من عند أنفسهم؟!

إنها معصية واحدة بمخالفة أمر رسول الله ﷺ في أمر تنظيمي، ومع أنها كانت بتأول، لكنها أحاقت بالمسلمين هزيمة قاسية؛ حتى إن الرسول ﷺ شُجَّ رأسه،



وكُسِرت رباعيته، وسقط في حفرة، حتى أحاط به الصحابة يدفعون عنه أذى المشركين، وكل ذلك كان بسبب معصية خمسين رجلا من جيش من المسلمين قوامه سبعمائة صحابي لا ملايين البشر! فما أشد شؤم الذنب وعقوبة المعصية!

رماة خالفوا رسول الله ﷺ والموت يقطف الرؤوس من حولهم، وفي أمرٍ لهم فيه تأويل، ونحن نخالف أمره في اليوم والليلة مرات ومرات، ثم نستغرِب تتابع الهزائم!

ومن تأمَّل هذه الواقعة عرف خطورة الذنب، ودوره في حلول النكبات وتوالي المصيبات.

قال **ابن القيم** رحمه الله:

«ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغِي عليه وأوذي وتسلَّط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح»(١).

وليس هناك أشد تدميرًا لمستقبل الأمة ولا جلبًا لخيبة الأمل ولا تعكير الصفو مثل المعاصي والذنوب. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

قديرٌ على ماذا؟

قدير على إهلاك أعدائهم، لكن جرت سنته أن يكون ذلك بأيدي المؤمنين، وذلك إن أخذتم بالأسباب المادية الإيمانية، وسايرتم سنن الله الكونية.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢.



لا تستبطئ النصر!

ولعلَّ أحدنا يكون عقبة في طريق النصر، ويكون مسئولاً عن تأخيره، وليس هذا بالداء الجديد، فإن صلاح الدين كان قد استبطأ النصر بعد حصاره للصلبيين فى عكّا ثلاث سنين متصلة، فأرسل إليه القاضى **الفاضل أبوشامة** رحمه الله قائلاً:

«إنما أُتينا من قِبَل أنفسنا!

ولو (صدقناه) (لعجَّل) لنا (عواقب) صدقنا!!

ولو (أطعناه) لما (عاقبنا) بعدوّنا!!

ولو (فعلنا) (ما نقدر عليه) من (أمره)،(لفعل) لنا ما(لا نقدر عليه) (إلا به!!)

فلا (يستخصم) أحد إلا (عمله!!)

ولا (يلُم) إلا (نفسه!)

ولا (يرجُ) إلا (ربه!)

ولا (تنتظر) (العساكر) أن (تكثر!)

ولا (الأموال) أن (تحضر!)

ولا (فلان) الذى يُعتقد عليه أن(يُقاتل!!)



ولا (فلان) الذى (ينتظر) أنه (يسير!!)

فكل هذه مشاغل عن الله!!

ليس النصر بها!!

ولا نأمن أن يكلنا الله إليها!!

والنصر به واللطف منه والعادة الجميلة له

ونستغفر الله –سبحانه– من ذنوبنا

فلولا أنها مسدٌّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل

وفيض دموع الخاشعين قد غسل

ولكن فى الطريق عائق!!

خار الله لمولانا فى السابق واللاحق»[١].



عادة الخلق النسيان

لكن عادة الخلق نسيان ما كان منهم من الخطأ والعصيان، والرجوع إلى اتهام الأقدار وقلة الحظ في ما نزل بهم من المحن والخسران، متناسين أن من درج على الإجرام فلا عجب أن تتخطفه سيوف الانتقام، وقد نبَّه **ابن القيم** رحمه الله الغافلين، وعرَّف من أصابته

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢ بتصرف.



نوبة النسيان من العاصين أن الإحصاء شديد والحساب قريب، فقال:

«فما سُلِّط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلَّط عليه مُؤذٍ إلا بذنب»[1].

وإن الطمع في النصر دون الأخذ بأسبابه من طاعة الله واجتناب معاصيه لهو طمع السفهاء، وهو شبيه بطمع العقيم في الولد، وطمع الزُرّاع في الثمار دون غرس، وطمع التاجر في ربح التجارة بغير اتجار.. وهم!!



ننتصر بطاعتنا ومعصيتهم!

كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال **هرقل** وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم:

ويلكم!

أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم؟

قالوا: بلى.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢ بتصرف.



قال: فأنتم أكثر أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخ من عظمائهم:

من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

فقال: أنت صدقتني[1].

ما أيسر النصر على الله.. وما أصعبه بجهودنا وقوتنا..

نصر الله مستتر في ثنايا كلمة كن..

لكن من وراء هذه الكلمة.. جهد جهيد وبذل طويل..

وإلا فبالله..

كيف ترجو من الله فتوحات تشبه المعجزات، وأنت لم تقدِّم له من نفسك أعظم القُرُبات، ولا أريته منك صدق المجاهدات!

كيف؟!

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٥ ط دار الفكر.



ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ لفسدتِ الأرض



ذيَّلت هذه الآية العظيمة كل الوقائع العجيبة التي أشارت لها الآيات التي تحدثت عن الصراع بين طالوت وجالوت، «ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان وحكمة من حكم التاريخ ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية»[1].



لكن.. لماذا تفسد الأرض؟

تفسد الحياة بفساد أهلها، وفسادُهم بالظلم والعصيان ومخالفتهم أمر ربهم، ودفع الله الناس بعضهم ببعض يوحي بأن أناسًا ألفوا الفساد وأُشرِبوه، وفي المقابل طائفة نجت بنفسها من الفساد، ولم يكتفوا بذلك بل قاوموه وحاربوه، وهؤلاء هم أهل الإصلاح وورثة الأنبياء.

ومثل هذه الآية قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

فهاتان الآيتان جاءتا في سياق الجهاد والدفع، ومن مقتضى العمل بهاتين الآيتين: أن إذا ظهر صاحب الباطل وأظهر باطله، فإن على أهل الحق أن يتصدوا لهذا المبطل ويدفعوه بالحق، وإلا فسدت الأرض.

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥٠٠.



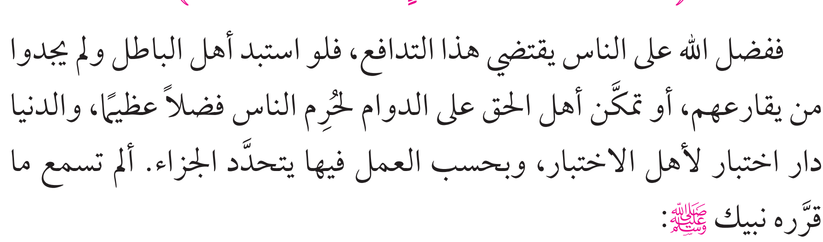
وقد ربط الله صلاح الأرض بالتدافع، فلو توقف هذا التدافع لحظة لفسدت الأرض، فالصراع سُنة ماضية، ولو تغلَّب الحقُّ على الباطل على الدوام لم يكن لاختبار الناس معنى، ولا للدنيا مغزى؛ لأنها الناس كلهم كانوا سينحازون لمعسكر الحق، ولن يبقى مع الباطل أحد!



وكذلك لو تغلَّب أهل الباطل في الأرض، فلم يبقَ للحق صوت ولا سلطان، لحلَّ سخط الله ومقته على أهل الأرض كما يحدث آخر الزمان، ففي الحديث أنه إذا لم يبقَ في الأرض إلا شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحُمُر، فعليهم تقوم الساعة.

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].



ففضل الله على الناس يقتضي هذا التدافع، فلو استبد أهل الباطل ولم يجدوا من يقارعهم، أو تمكَّن أهل الحق على الدوام لحُرِم الناس فضلاً عظيمًا، والدنيا دار اختبار لأهل الاختبار، وبحسب العمل فيها يتحدَّد الجزاء. ألم تسمع ما قرَّره نبيك ﷺ:

«وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»؟!



فلابد أن يقف في وجه الحق أقوام، ويواجه الباطلَ أقوام، ولذا كان الصراع بين الحق والباطل قديم قِدَم الدنيا، وباقٍ إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

هي سنة الصراع، -كما يسميها بعضهم- أو سنة المدافعة، أو سنة الخصومة، وهي سنة جارية في الكون بين المؤمنين والكافرين، بين أهل الحق وأهل الباطل، بين أولياء الله وأعدائه، وقد جعل الله الدنيا مسرح هذا التدافع، ولذا سطَّر **ابن خلدون** ﵀ في تاريخه وقرَّر ﵀ ما يلي:

«اعلم أنّ الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصّب لكلّ منها أهل عصبيّته فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطّائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعيّ في البشر لا تخلو عنه أمّة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر إمّا غيرة ومنافسة.

وإمّا عدوان.

وإمّا غضب للهّ ولدينه.

وإمّا غضب للملك وسعي في تمهيده»[١].

وحتى على نطاق الأفراد لا الجماعات يظل التنازع قائما، فسنة الصراع جارية ولو كنت معتزلاً على رأس جبل!

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ١/ ٣٣٤ - ابن خلدون - ط دار الفكر.



وابن الوردي صدح بهذا في قصيدة له هاتفًا:

ليس يخلو المرء من ضدٍّ ولو حاول العزلة في رأس الجبل

فمهما طمعت في السلامة ولو كنت وحدك فهيهات، وسيظل الاختلاف سنة ماضية، والتباين سمة الحياة، والصراع والحرب جزء من الحياة البشرية لا تنفكان عنها بحال، وغارق في الأوهام من يظن أن الحق منتصر بالحوار فحسب، وأن الباطل يُخلي عرشه للحق ليتربَّع عليه في سلام، وأن منهج السلامة والهروب من الصراع يمكن أن يُفضي إلى سيادة أو ريادة.



ميادين الصراع!

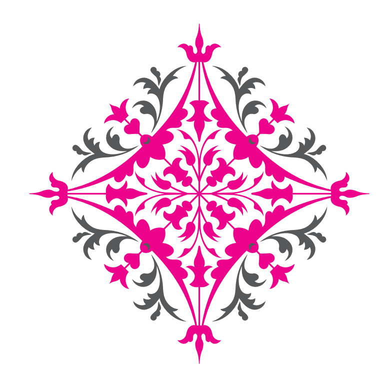
وصراع الحق والباطل يبدأ من الكلمة، ويمتدُّ إلى صراع الأفكار والمبادئ، ومن أدواته الكتاب والدرس والمحاضرة، وليس ميدان الصراع ميدان القتال فحسب، بل نحن اليوم في منازلة مع الباطل في كل الميادين:

- ففي الاقتصاد منازلة بين دعاة الحق ودعاة الربا والكسب الحرام.
- وفي الاجتماع منازلة بين دعاة الحياء والعفاف ودعاة الرذيلة والانحراف.
- وفي الإعلام منازلة بين الإعلام الهادف وإعلام الشهوات والنزوات وتتبع العورات.
- وفي السياسة منازلة بين أصحاب مبدأ (الغاية تبرِّر الوسيلة) وأعداء هذا المبدأ.



- وفي الفن جولات وصراعات.

وفي كل ميدان من ميادين الحياة اليوم منازلات حامية ومعارك ضارية، ولعلها في حقيقتها أعظم خطرا وأشد فتكا من المعارك العسكرية، ولا يدرك ذلك إلا العالمون ببواطن الامور، العاقلون بسنن الله الماضية عبر العصور والدهور.




بينَ القاتل
والمَقتُولَ!



تخيل معي هذا المشهد..

أبصِره اليوم بقلبك..

قبل أن تعيشه واقعًا في الغد بنفسك..

ملائكةٌ بلا حصر..

يصطفون في صفوف مترامية على مدِّ البَصَر..

وَسَط حالة من السكوت المخيف والصمت المذهل المشوب بالوجل..

حينها..

تذهل كل مرضعة عما أرضعت..

ويسود الصمت القاتل في جموع المرتجفين..

ولا يبقى سوى لغة النظرات والهمسات..

وفشا الخبر!

أن الله –جلَّ في عُلاه– قد غضِب غضبًا لم يغضب مثله قط.

وسمع الناس صوتًا عظيمًا قادمًا من بعيد..

فإذا بها جهنم!

أضخم ما خلق الله

يجرها الملائكة في صعوبة بالغة..



أمام العيون الزائغة والقلوب الخائفة..

ومن ضخامتها أن خلق الله لها سبعون ألف زمام..

كل زمام يجرُّه سبعون ألف ملَك..

وصوت زفيرها يتصاعد وهي مقبلة..

يبث الرعب في القلوب..

ويُسمَع غليانها الذي يعبِّر عن شراهة لأن تلتهم ما كُلِّفت به من البشر..

وألسنة النار منها تتصاعد..

وكل لسانٍ ينادي من وُكِّل به..

باسمه واسم أبيه واسم أمه..

ويسود الفزع أكثر وأكثر..

فكلٌّ من رآها فرَّ..

وسقط على وجهه..

لا يلوي على شيء من شدة الهول..

من أخيه يهرب..

من أمه وأبيه يهرب.

فالكل مشغول بنفسه..



ولا أحد يستطيع دفع الضُّر عن نفسه فضلاً عن غيره..

والناس في فزع يتصارخون..

نفسي.. نفسي..

وحينها يبحث الكل عمَّن يشفع لهم من الصالحين والأتقياء..

وليس أتقى من الأنبياء؟!

فيبحث الناس جميعًا عنهم في لهفة..

وحين يلمحون أثر نبي..

يتدافعون نحوه يلتمسون الغوث..

لكنهم ويا للمفاجأة يسمعون منه نفس الكلمة:

نفسي.. نفسي..

ونبيًا تلو نبي...

يصيح بنفس الكلمة..

وهنا تنكسر القلوب وتتحطَّم..

ويتزايد الرعب ويتصاعد..

إن كان هذا حال الأنبياء فما حال الأشقياء؟!

ثم يسمعون النداء..



يا أصحاب الدماء..

يا أصحاب الدماء..

فيكبِّر الآلاف..

لبيك ربنا!

ويخرج أول ما يخرج الشهداء..

ولماذا يتقدَّم الشهداء؟!

لكرامتهم عند الله..

ولأن أول ما يُقضى فيه بين الناس يوم القيامة الدماء.

وترتفع الصرخات لدى الجليل..

القصاص..

يا رب القصاص!

لكن من الذي سيجد القتلة وسط هذا الزحام؟!

وهم مثل حبات الرمال المتناثرة في الصحراء الشاسعة!

من يستخرج المجرمين من وسط هذه الأمواج المتلاطمة من البشر والوحوش والإنس والجن..

من يأتي بهم وهم الغارقون في هذه الأمواج المتدافعة في ساحة الحشر؟!



وهنا يأمر الله ملائكته أن أحضروهم..

فتطير الملائكة على الفور..

تجذب القتلة المنتشرين بين الناس من أعناقهم في شدة وعنف!

تضرب وجوههم وأدبارهم.

فلان بن فلان..

كلُّ من قتل..

أو شارك..

أو أعان..

بوشاية..

بشماتة..

بكلمة..

بل ولو بشِقِّ كلمة..

من النواصي يُسحبون..

وصراخ كل واحد منهم يعلو في جنون:

ليتني كنت ترابًا..

ما كنا غير أتباع لهؤلاء المجرمين الذين أضلونا وأضاعونا.



يا رب..

إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا..

يا رب..

يا رب..

إلى أن يختفي الصوت!

ويا لها من حسرة ما بعدها حسرة..

تخاصم أهل النار..

وتأبى عدالة الله إلا أن يكون القصاص بين يديه سبحانه!

لا يوكِّل فيه أحدًا من ملائكته..

بل يتم القصاص تحت العرش مباشرة!

تكريمًا لهؤلاء الشهداء!

وتعظيمًا لحرمة الدماء!

وانتقامًا من القتلة الأشقياء!

فيجيئ المقتول في مشهد رهيب!

يجيئ كل مقتول على حِدة!

فجريمة القتل أعظم من أن يتم المجازاة عليها بالجملة!



يقبض على قاتله..

يمسك به من ناصيته..

وأوداجِ المقتول تشخب دمًا..

ويقف الاثنان تحت العرش مباشرة..

بين يدي رب العزة والجلال..

والقوة والجبروت..

وعندها يصيح المقتول:

يا رب..

يا رب..

سل هذا فيم قتلني!

ويأتي القرار الإلهي الصارم:

تعِسْتَ!

ويُذهَب به إلى النار

ليذوق الانتقام الرباني!

وتتساقط دموع القاتل حسرة وخوفًا..

وتتساقط دموع الشهداء.. والثكالى.. والجرحى فرحة وأنسًا..



فقد رأوا من قَتَلهم يقتص الله منه..

ثم ينادون وقد سكنت قلوبهم في لهفة ورجاء:

يا رب..

قد لقينا ما وعدتنا يا ربنا حقا..

صدقتنا ما وعدتنا..

فهل تأذن لنا يا ربنا الآن في رجاء آخر؟!

لبيك عبدي!

يا رب..

تأذن لنا في الشفاعة؟!

فيقول:

قد أذنت..

فيطير الشهيد باحثًا عن زوجه التي ظلت تبكي فراقه كل ليلة منذ فارقها..

ويطير إلى ابنه الذي كان يَسأل عنه بعد أن مات فيجيب ببراءة الأطفال:

(بابا عند ربنا!).

وأبواه اللذان فقدا طعم العيش ولذة الحياة بعد فراقه..

هؤلاء أسعد الناس بشفاعته..



ويسمعون صوت ملك الملوك مهنِّئًا.. مبشِّرًا..

معلنًا علو درجتهم ورفعة مقامهم:

إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون..

هم الفائزون بصبرهم..

كما أن قتلتهم هم أعظم الخاسرين بظلمهم وبطشهم..

وقُضِي بينهم بالحق..

وسُمِع الصوت يملأ الأرجاء..

يطرق أسماع أهل الجنة فيملؤهم فرحة..

ويطرق أسماع أهل النار فيملؤه حسرة..

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين



الفهرس


ينابيعُ الرجاء


ينابيع الرجاء


ينابيع الرجاء

